الدكتورة نوال السعداوي

أغنية الأطفال الدائرية



مكتبة مدبولي
القاهرة

اغنية الاطفال الدائرية

د. نوال السعداوي

اغنية الاطفال الدائرية

رواية

مكتبة مدبولي ـ القاهرة

الطبعة الاولى ١٩٧٨
الطبعة الثانية ١٩٨٣

الاهداء

الى طفلي المجهول ، الذي ولدته وحدي منذ قرون ؛ وتركته بالليل في حضن الجسر، وفي الصباح وجـــدت مكانه شجرة خضراء باسقة ، جذرهـا في الارض ، ورأسها في السماء ، شامخـة كالالهـة الانثى القديمة ، ربة الحياة والمـوت .

اليه والى كـل الشجرات الباسقات في العالم ، والى كل أطفـال الآلهـة اهدي هذه القصة .

نـوال السعـداوي

كانت دائرة من اجساد الاطفال الصغيرة تلف وتدور حول نفسهـا امام عيني ، كل يوم ، وفي اي وقت انـزل فيه من بيتي ، وصورة غنائهم الحـاد الرفيع يدور مـع حركة اجسادهم في اغنيـة واحدة ، لهـا مقطـع واحد ، يتكرر فـي دورة متصلـة لا تنقطـع :

حميدة ولـدت ولـد
سمّته عبدالصمـد
سابتـه ع الانايا (١)
خطفت راسه الحدايا (٢)
حـد يا حـد •••
يا بـوز القـرد !
حميدة ولدت ولـد

---

(١) الانايـا : القناة

(٢) الحدايا : الحداة

سمّته عبدالصمد
سابته ع الانايا
خطفت راسه الحدايا
حد يا حد ...
بابوز القرد
حميده ولدت ولد
سمّته عبدالصمد

***

ويكررون الاغنية . ما ان يصلوا الى الجملة الاخيرة حتى تأتي الجملة الاولى ، وما أن تنتهي الجملة الاولى حتى تأتي الاخيرة . ولانهم يدورون ويغنون بغير انقطاع ، فلا يمكن للاذن ان تعرف بداية الاغنية من نهايتها،ولا يمكن للعين ان تعرف بداية حركتهم من نهايتها . فهم كعادة الاطفال يمسكون بأيديهم بعضهم البعض على شكل دائرة مغلقة .

ولكن لا بد لي ان أبدأ القصة ، فكل شيء له بداية ، لكن نقطة البداية في هذه القصة لا استطيع تحديدها . فالبداية لا تبدأ بنقطة محددة ، لان البداية في حقيقة الامر غير موجودة او ان البداية والنهاية يتصلان

في خيط واحد دائري من الصعب تحديد اوله من آخره .

ومن هنا صعوبة البدء بشيء ، وعلى الاخص اذا كان قصة حقيقية . اي قصة صادقة كل الصدق ، دقيقة غاية الدقة . والدقة الدقيقة تقتضي من الكاتب او الكاتبة ان يراعي والا يهمل اي نقطة . ان نقطة واحدة قد تقلب كيان معنى من المعاني ، وبالذات في اللغة العربية . الذكر يصبح انثى بسبب نقطة او شرطة ، والبعل بغلا ، والوعد وغدا وهكذا .

ومن هنا لا بد ان توجد نقطة محددة ابدأ بها . والنقطة المحددة هي النقطة المحددة ، لا يمكن ان تكون شرطة او دائرة ، وانما لا بد ان تكون نقطة حقيقية، اي نقطة هندسية . وبمعنى آخر لا بد من دقة علمية في العمل الفني الجيد الذي هو هذه القصة . لكن العلم يفسد الفن ، وهذا الافساد هو بالضبط ما اريده في هذه القصة لتصبح جيدة ، أو لتصبح حقيقية وصادقة صدق الحياة الحية . وانني لأصر على هذا التعبير « الحياة الحية » اكتبه بسبق اصرار وليس من قبيل الصدفة . لان هناك حياتين : حياة حية وحياة ميتة . والحياة الميتة

كالانسان الذي يمشي على الارض دون ان يعرق ، او دون ان يبول ، او دون ان ينبعث مـن جسده شيء فاسد .
الفساد والافساد والتفسد كلها اشياء ضرورية للحيـاة الحيـة ، وللانسان الحي . لا يمكن للانسان الحـي ان يحبس بوله في مثانته الى الابد ، والا مـات . حينئذ يستطيع ان يحبس فساده في الداخل ويصبح من الخـارج جسدا ميتا نظيفـا من الناحية العلمية . اما من الناحيـة الفنيـة فان الفساد المحتبس بالداخل اشد تفسدا مـن الفساد المنطلق الى الخارج . وهـذه حقيقة او ظاهـرة طبيعيـة لا تخفى على أحد ، فان رائحة الجسد الميت اشد سوءا من رائحة الجسد الحي .

خيّل اليّ (والخيال في تلك اللحظـة كان حقيقة) ان طفـلا من الاطفال المنشدين المتماسكين بالايدي علـى شكـل دائرة تدور خرج فجأة من الدائرة . رأيت جسمه الصغير ينفصل عن الخط الدائري المنتظم فـي دورانـه كنقطـة لامعـة محددة . كنجم فقد توازنه الابـدي فانفصل عن الكـون اللانهائي ، واندفع بحركة عشوائيـة سريعـة متوهجـا بشعلة كالشهب قبل ان يحترق .

وباستطلاع غريزي تابعت عيني حركته . وحين توقف

كان قد اصبح بالقرب مني • ورأيت وجهه • لـم يكـن طفـلا ذكرا • كان انثى • لم اعرف عن يقين انهـا انثى ، فوجوه الاطفال كوجوه العجائز لا جنس لهـا • وبيـن الطفولـة والشيخوخة مرحلـة يضطر فيها الانسان الـى الاعلان عن جنسه بوضوح اكثر •

الوجه (للغرابة الشديدة) لم يكن غريبا عليّ • كان مألوفـا بدرجة اثارت دهشتي الى جدّ عـدم التصديق • فليس من المعقول ان يخرج الانسان من بيته فـي الصباح ذاهبا الى عمله ،فاذا به يصطدم بشخص آخـر ، مـا ان يرفع وجهـه اليه حتـى يرى وجهه هو ؛ وليس ايّ وجه آخـر •

اعترف انجسدي ارتجّ ، نوع شديد مـن الذعـر يشلّ قدرة الانسان عـلى التفكير • ومع ذلك فكرت : يذعر الانسان حينما يرى وجهه وجها لوجـه ؟ لعلّهـا الغرابة الشديدة ، او لعلها الالفة الشديدة• حينئذ يختلط على الانسان كل شيء ، وتصبح الاشياء المتناقضة متشابهة الى حد التماثل ، فالاسود يصبح ابيض ، والابيض اسود• ومعنى ذلك انيواجه الانسان بعينيه المفتوحتين حقيقـة انه أعمى •

فركت عيني بأصابع مرتجفة . ونظرت في وجهه مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة وخامسة وربما لا زلت انظر في وجهه حتى هذه اللحظة ، وفي كل لحظة ، كأنه يلازمني كظلّي ، او يلتصق بي كقطعة من جسدي ، كذراعي أو ساقي .

والذعر بطبيعته يولد الكراهية . لا أنكر انني كرهت هذا الوجه . وقد يظنّ بعض الناس انني لست صادقة فيما أقول ، ويتساءلون كيف يمكن لانسان ما أن يكره وجهه ، او جسده ، او قطعة من هذا الجسد . وهؤلاء الناس هم ولا شك على حق . انهم اقدر مني على رؤيتي . ليست هي محنتي وحدي ولكنها محنة كل انسان . فالآخرون يرونه اكثر مما يرى نفسه . يرونه من الامام ، ومن الجانب ، ومن الخلف . يرونه من ظهره . اما هو فلا يرى نفسه الا من الوجه ومن خلال مرآة .

المرآة تظل هناك دائما ، قائمة كالشخص الاخر بين الانسان ونفسه . ومع ذلك فأنا لا اكره المرآة ، بل اكاد احبها حبا شديدا . احب النظر فيها طويلا ، والحملقة . احب ان ارى وجهي . الحقيقة اني لا امل النظر الى وجهي . فهو وجه جميل ، اجمل من اي وجه آخر رأيته

على ظهر الارض • وفي كل مرة انظر اليه ارى جمالا جديدا يكاد يسحرني •

قد لا يستغرب بعض الناس هذا الصدق الشديد ، فالصدق الشديد يصبح مقززا في بعض الاحيان ، او في كل الاحيان • ولكني عاهدت نفسي على ان اقول الصدق • أنا ادرك ان الاستمرار في الصدق مجهد ، يتطلب دائما مزيدا من الجهد والتضحيات • كأن يضحي الانسان بأن يكون جميلا او مقبولا في كل لحظة ، وان يتحمل احيانا درجة من القبح ، في نظر الناس ، اعترف انه قد يكون قبحا شديدا يصل الى حد التقزز • ولكن هذا هو الكفاح المطلوب في العمل الفدائي وفي العمل الفني الجيد ، الذي اكتبه الآن •

بهرني في الوجه بالذات العينان ، فأنا اعشق العيون• واعتقد (وقد يكون اعتقادي بغير علمية معترف بها) ان عيني الانسان جهاز حساس ، بل انه اكثر اجهزته حساسية ، يليه الجهاز التناسلي بطبيعة الحال • شدّتني الى العينين نظرة لها لمعة متحركة في كل الاتجاهات والزوايا كاشعاعات فصّ الماس الحقيقي • وهي نظرة محيّرة فعلا • لانها ليست نظرة واحدة ، يستطيع

الانسان ان يحدد معناها ، نظرة حزن مثـلا ، او نظـرة فرح ، او نظرة عتاب ، او نظرة خوف ، ليستهـي نظـرة واحدة ، وانما هي نظرة متعددة النظرات ، وان بدت مـن السطح وحيدة النظرة ، الا انه سرعان ما تنطوي النظـرة الاولى وتتلوهـا الثانية والثالثة كصفحات كتاب او كطيات نسيج رقيق وضعت طبقاته الطبقة فوق الطبقة ...

انشغلت بالعينين عن بقية ملامح الوجه . لم أر الانف ولم ار الخدين ولا الشفتين ولا اليد الصغيرة التي ارتفعت في الهـواء ولوحت لي بحركة ناعمة مألوفة كأنها تعرفني .

سألتهـا : ما اسمـك ؟

قالت : حميدة

وارتفع صوت الاطفال بحركتهم واغنيتهم الدائرية بغير بداية او نهايـة .

حميده ولدت ولـد
سمّته عبـد الصمد
سابته ع القنايـا
خطفت راسه الحدايا
حـد يا حـد

يا بـــوز القـــرد
حميدة ولدت ولـــد

ضحكت كعـــادة الكبار حين يداعبون الصغار وقلت:

ـ يغنّـــون لـــك ؟ ..

لكنها لم تردّ . لانهـــا كانت قد اختفت من امامـــي في اللحظة التي اهتز فيها رأسي اثناء ضحكي . استطعت فقط ان المح ظهرها الصغير المحنـــي بعض الشيء وهـــو يختفي داخل باب خشبي داكن اللون علقت فوقه يد آدمية خشبيـــة كمطرقـــة .

لم امسك المطرقة كعادة الغرباء حين يدقون الابـــواب المغلقة . كنت اعرف طريقي ، رغم الظلمة الشديدة التـــي تقبع دائما في مداخل تلـــك البيوت ، ولان الشمس ايضا كانت قد غربت منذ زمن طويل . عن يمينـــي رأيت رأس الماعزة يطل من خلف الجدار ، وعن يساري كانت هنـــاك عتبة صغيرة مرتفعة بعض الشيء . تعثرت في العتبة ككـــل مرة ، وكدت اسقط على وجهي لولا خفّة جسمي المعهودة وقدرته العجيبة على الاحتفاظ بتوازنه المختلّ .

ورأيتها نائمة فوق الحصيرة ، مستغرقة في النـــوم .

جفناها نصف مغلقتين ، وشفتاهـــا نصف مفتوحتيـــن ، تتنفس من فمها انفاسا عميقـــة كأنفاس الاطفال العميقـــة ، وذراعاهـــا متكورتان حول رأسها ، ويدهـــا اليمنـــى مطبقة على قرش او تعريفة ، وجلبابها الطويل انحسر عـــن ساقيهـــا الناعمتين الرفيعتين حتى الركبتين ، ورأسهـــا الصغير يهتـــز بحركة ضئيلة غير مرئية ، وفكاها الصغيران يضغط احدهمـــا على الآخـــر ضغطة هيّنة توحي بلـــذة تذوب في فمها من قطعة الحلوى مختبئة تحت لسانها .

كان الليـــل مظلمـــا بغير قمر ، والمصباح المشتعل منذ اول الليـــل احترق شريطه ، أو نفد زيته ، فاصبح ذؤابـــة ضئيلة ، اطفأتها نفحـــة هـــواء قوية ، وساخنة ، اندفعت فجأة من ناحيـــة الباب ، الذي لم يكن بابا ، فالغرفة لـــم يكن لها الا عتبة صغيرة مرتفعـــة بعض الشيء ، لكـــن ذؤابة الضوء كانت قـــد انطفأت فأصبحت الظلمة شديـــدة الارض كالجدار كالسقف . لا شيء يظهـــر في الســـواد الداكن الا سدّ كبير يسدّ فتحة الباب تماما فيمـــا عـــدا ثقبين صغيرين مستديرين يتوسطان الرأس ، وينفذ منهمـــا ضوء أصفر تشوبه حمرة بلون جذوة النار حين تتقد .

لم يكـــن الشفق قد طلع بعـــد في تلـــك اللحظـــة

الساقطة ما بيـن آخر خيوط الليـل واول خيوط النهار ، فتعثرت قدمه الكبيرة الحافية في العتبة المرتفعـة بعض الشـيء . لكنه استعاد توازن جسده الطويل العريض ، ووثب كالفهد على اطراف اصابعه المطاطية ، ثم سار علـى مهل وحذر متخطيا شيئا يشبه البلغة (١)

وبالثقبين اللذين ينفذ منهمـا الضوء المشوب بالحمرة حدد مكانهـا فوق الحصيرة ، كعينـي قط وحشي لـم تستأنس حدتهما وقدرة حدقتيهمـا على الاتساع فـي الظلام . وحينما امتدت اصابعه الغليظة المفلطحة لترفـع جلبابها عن فخذيهـا البيضاوين كانت لا تـزال مستغرقة في النوم استغراق الاطفال ، وقـد تغيّر الحلم ، وذابت قطعة الحلوى تحت لسانها ، وبدأ البائع يطالبها بالقرش ، وفتحت يدهـا فلم تجـد قرشا ، وامسك البائـع الفظ العصا وراح يجري خلفها .

كان جسدها خفيفا صغيرا يطير فـي الهواء كاجساد العصافير ، وكان من الممكـن ان تسبق البائع (لو كانت عصفورا) لكنهـا احست فجأة وكما يحدث في الاحـلام

---

(١) الحذاء بلغة الريف .

تماماً ان جسدها اصبح ثقيلا كأنه تحجّر على شكل تمثال تسمّرت قدماه في الارض ، وثبتت ذراعاه بالحديد والاسمنت ، والفخذان اصبحتا من الرخام ، وكل فخذ شدّت الى ناحية ، وتصلبت الساقان في الجو منفرجتين كالمصلوب ، وضربات العصا تنهال بينهما بعنف لم تعرفه من قبل .

صرخت . لكن صوتها لم يطلع . يد كبيرة مفلطحة سدت فمها وانفها فاختنقت ، وادركت انها لا تحلم ، وان جسدا كبيرا له رائحة التبغ ملاصق لجسدها . كانت عيناها مغمضتين ، لكنها استطاعت ان ترى ملامح الوجه ، وتدرك انها تشبه ملامح ابيها ، او اخيها، او عمها ، او خالها ، او ابن خالها ، او اي رجل آخر .

وكانت حميدة تستيقظ كل صباح ككل الاطفال ناسية احلامها ، وتقفز من فوق الحصيرة كالعصفور ، تجري الى امها ، وتشدو بصرخات الاطفال السعيدة حين يستقبلون اليوم الجديد بجسم نام حتى شبع ، ومعدة خوت حتى تفتحت شهيتها لكل شيء ، وان كان قطعة خبز مقدد تكسر الاسنان اللبنية ، او شفطة لبن من ضرع ، او قطعة مش من قاع الزلعة .

ذلك الصباح استيقظت حميدة ككل صباح، لكن الحلم لم يتنس كالاحلام السابقة ، واصابع غليظة تركت آثارا حمراء وزرقاء على ذراعيها وساقيهـا ، وضربات العصا لا تزال تؤلمها بين فخذيها ، ورائحة التبغ لا تزال عالقة بجلدها .

ظنت امها انها مريضة بالحمى ، فربطت رأسها بمنديل وتركتها راقدة فوق الحصيرة طول اليوم ، ونامت حميدة النهار والليل ، واستيقظت في اليوم التالي ، وظنت انها نسيت الحلم ، وانه ضاع في الزمن وتبخر في الهواء ، كأنما لم يكن ، فقفزت من فوق الحصيرة قفزتها المعتادة ، فيما عدا ثقل خفيف في ساقيها سرعان ما راح حين ارتدت المريلة وجرت مع الاطفال الى المدرسة .

كنت استطيع دائما ان اميز حميدة من بين الاطفال ، فالمريلة من الدمور ، ولونها سمني فاتح ، عليها بقعة من الخلف كانت حمراء من ايام ، حين تسربت نقطة دم من سروالها الصغير الى المريلة وهي جالسة في الفصل . امها كانت تنبهها دائما لتحتاط للامر ، وان تضع الفوطة الدمور بعناية بين فخذيها ، فهي لم تعد طفلة صغيرة ، وكثيرا ما سمعت امها تقول : « في

مثل سنك تزوجت ولم يكن ثدياي قد ظهرا بعد » .

خجل كالعرق كان يندي جبهتها المستقيمة الصغيرة حين تستدير وترى البقعة فوق المريلة ، فتجري على اطراف اصابعها وتخلع المريلة وترتدي الجلباب الطويل ، وتجلس الى الطشت ، وتغسل مريلتها الوحيدة ، ثم تنشرها على الحبل في الشمس لتجف قبل اليوم التالي .

وذات يوم اصبحت المريلة ضيقة ، بصعوبة ادخلت فيها جسمها ، وبالذات من الامام ، عند بطنها . واستقرت عينا امها على بطنها بنظرة غريبة لم ترها من قبل ، ومخيفة الى حدّ ان رعدة خفيفة سرت في جسدها الصغير . والتفّت اصابع امها الكبيرة حول ذراعها النحيل وصاحت :

ـ اخلعي المريلة .

خلعتها وارتدت الجلباب ، وجلست في الشمس بجوار الحائط . كانت امها تناديها لتساعدها في العجين او الخبز او الطبخ او كنس الدار ، او كان ابوها او خالها او عمها يرسلها الى الدكان لتشتري دخانا ، او كانت خالتها او عمتها تناولها طفلها الرضيع لتحمله عنها

حتى تعـود من الحقل ، او جارتها كانت تناديهـا من فوق السطح لتملأ لهـا الجرة من البحر ، او اخوهـا او خالهـا كـان يلقي اليهـا بجوربه وسرواله القذرين لتغسلهما • وعنـد الغروب يلتف حولها البنات والصبيـان من اولاد الجيران فينزلون الى الشارع ويلعبون « المساكـة » ، او « عسكر وحرامية » ، او « الثعلب فات فات » او « حبـة ملـح » ،او « حميدة ولدت ولد » •

أي شيء من ذلك لم يحدث فـي ذلـك اليـوم • وتركوها وحدها جالسة في الشمس ، ولم تجد بدا مـن التحديق في قـرص الشمس طويـلا • وحينمـا غابت الشمس ظلت جالسة مكانها في الظلام ، جسدها الصغيـر يرتعد • شيءمـا تحسه ولا تعرفه ، شـيء مـا رهيب يحدث من حولها ،في الظلام ، وفي الصمت ، وفي العيون ، كـل العيون ، حتى الدجاج الذي كـان يلتف حـولها ، لم يقترب منهـا ، والقط الاسود الكبير الذي كـان يتمسح بهـا اصبح واقفا بعيدا عنها ، يرمقهـا بنظرة وجلة من عينيه الواسعتين ، وبانتصابة من أذنيـه الطويلتيـن المدببتيـن •

سقط رأسها فوق ركبتيها وهي جالسة • وربما غفت

لحظة او عدة ساعات ، افاقت بعدهـا على اصابع طويلـة تمسك ذراعها . انتفضت مذعورة ، وكادت تصرخ ، لـولا ان يـد امهـا اصبحت فوق فمهـا ، وصوتهـا الخافت اصبح كالفحيح :

— تعالي ورائي على اطراف اصابعك .

الليـل مظلم بغير القمر ، والشفق لم يطلع بعـد ، وكل شيء في القرية ساكن نائم في تلك اللحظة الساقطة مـا بين آخر الليـل واول النهار قبل آذان الفجر ، وقدما امها الحافيتان الكبيرتان تنتقلان فوق الارض المتربة بسرعـة كبيرة، توشك ان تجري ، وحميدة خلفها ، تكـاد تلمس طرف ثوبهـا .

أرادت ان تفتح فمها وتسأل امها عن السبب ، لكن امها توقفت عنـد سور صغير يفصل الطريق الزراعـي عن قضبان القطار . وراء هذا السور كانت تختفي حميدة حين يلعبون المساكـة . ناولتهـا امهـا طرحة سوداء .

وضعت حميدة الطرحة على رأسهـا فانسدلت فـوق عنقهـا وكتفيها وصدرهـا وبطنهـا وظهـرها واصبحت تشبه نساء القرية . فتحت فمهـا لتسأل ، لكـن صفارة القطـار جعلت جسد امها يرتعد ، رعدة عنيفـة هـزّت

الارض مـن تحتهـا ، وبعنف ايضا اندفعت قبضتهـا الكبيرة في ظهر حميدة ، وقـذفت بهـا ناحية القطار ، وصوتهـا الهامس المنخفض كالفحيح :

ــ القطار لا ينتظر أحدا • اهربي !•

اندفعت حميدة نحـو القطار ، لكنها استدارت لحظة قبل ان تركب ، ورأت امهـا واقفـة في مكانها ، متسمّرة في الارض ، ثابتة لا تتحرك ، والطرحة السوداء فـوق رأسهـا وكتفيهـا وصدرهـا ثابتة ايضا ، فلـم يكـن صدرهـا في تلـك اللحظـة يتحرك ، ولا شـيء فيهـا يتحرك ، ورموشهـا ثابتة متجمدة ، كتمثال حقيقي منحوت من الحجـر •

كان القطار يدخل المحطة ، برأسه الاسـود الضخـم ينبعث منه الدخان ، وبعينه الوحيدة الكبيرة المضيئة بنور قوي كشف المحطة ، وكشف حميدة وهي واقفة ، فاختبأت وراء عمود • وقف القطار بعـد ان اصطدمت عرباته بعضها بالبعض ، واصطكت عجلاته الحديدية بالقضبان الحديدية محدثة صوتا عاليـا فاضحا ، خيل اليهـا انه ايقظ كـل اهل القريـة ، فاندفعت نحـو القطار تخفي وجهها بذيل طرحتهـا •

مدّت قدمها اليمنى الصغيرة لتضعها فوق سلم القطار ، لكن السلم كان بعيدا عن الرصيف ، ولم تكن قد ركبت قطارا من قبل ، فلم تصل قدمها الى السلم •

عادت بقدمها الى الرصيف • وتلفتت حولها في ذعر • خشيت ان يتحرك القطار ولا تركب • رأت بعض الرجال والنسوة يركبون العربة الامامية فاسرعت ووقفت خلفهم • راقبتهم وهم يصعدون السلم واحدا وراء الآخر • كل واحد منهم كان ، قبل ان يضع قدمه على السلم، يمسك بيده اليمنى مقبضا حديديا على جانب الباب لم تره من قبل • مدّت حميدة ذراعها وامسكت المقبض بكل قوتها ثم شدت جسمها فاصبحت قدمها فوق السلم ، وصعدت الى الداخل •

جلست على اول مقعد قابلها ، ورأت جوارها نافذة فأطلت منها • كان القطار قد تحرك ببطء ، وتصلب رأسها خارج النافذة وهي ترى أمها لا تزال واقفة في مكانها ، ثابتة لا تتحرك ، وطرحتها ورأسها وصدرها ورموشها وكل شيء فيها جامد ثابت •

انفجرت شفتاها لتناديها ، لكنها تذكرت انها لم تعد امها ، وانما هو تمثال الفلاحة القائم عند مدخل

القرية منذ سنين لا تعرف عددها ، فقد رأته منذ ولدت ، ولا بد انه كان هناك دائما قبل ان تولد •

كان رأسها لا يزال خارج النافذة ، لكن انفاسها اصبحت تدخل وتخرج ، تلهث وهي جالسة في مكانها، ولاول مرة تعرف ملمس دموعها فوق بشرة وجهها ، ومذاقها في فمها • لكنها لم تتحرك ولم تمدّ يدها بطرف جلبابها او كمّها لتمسحها ، تركتها تنساب وتجري وتدخل فمها ، ثم لعقتها بلسانها دون ان تتقلص في وجهها عضلة واحدة ، ودون ان يخرج من فمها صوت ، ودون ان يتحرك جفناها او تهتز رموشها ، وكل شيء اصبح اسود ، وذاب القطار في السواد وامتزج بالليل ، كالقطرة تذوب في جوف البحر • .

***

في تلك اللحظة كان حميدو لا يزال راقدا فوق الحصيرة • كان نائما وعيناه مغمضتان ، لكنه كان يرى عيني ابيه في الضوء الخافت ، واقفا بقامته الطويلة كجذع شجرة كافور ضربت بجذورها في بطن الارض •

سرت في جسده الصغير برودة ثقيلة ، خدّرت ساقيه

وذراعيه ، بذلك الثقل الذي يصيب الاطراف اثنـاء الحلـم المزعج • وظل راقدا في مكانه لا يتحرك ، شاخصا نحـو ذلـك الشبح الطويل الواقف الثابت بغيرحراك ، وادرك ان شيئـا خطيرا قد حدث او سيحدث • كتم انفاسـه واختفى تمامـا تحت اللحاف المسود القذر • اصابعـه الصغيرة تشد الغطاء حول رأسه ، واذنه اليمنى فـوق الوسادة الصلبة ترتج من تحته بدقات قلبه ، تنبعث مـن رأسه وليس من صدره •

توقع في كل لحظة ان تمتدّ الاصابع الطويلـة وتشد الغطاء عن رأسه ، وتستقر العينان الواسعتان في عينيـه تصب فيهمـا الشيء الخطير • لكـن اللحاف ظل مشدودا حول رأسه ، ودقات قلبه مسموعة في الصمت ، وحركـة صدره مرئيـة في الظلام ، حركة خفيفـة نكاد تكـون غير مرئيـة ، كرؤوس الاشجار في ليل ساكن بغير نسمة هواء واحدة ، وبغير قمر ، والظلمـة كاللحاف الاسـود تلف السماء والارض في تلك اللحظـة الساقطة مـا بين اخـر الليـل واول النهار ، قبل ان تبدأ خيوط الفجـر ويزحف الظلام صاعدا ببطء ، كحوت ضخم يسبح فـي محيط لا نهائي ، ترقـد في قاعـة بيوت القريـة الطينية الصغيرة المتلاصقـة ككوم من السباخ الاسود •

وحين فتح حميدو عينيه كـــان ضـــوء النهار يمـــلأ الغرفـــة • وايقـــن ان ما رآه لم يكـــن الا حلمـــا ، فقفز من فوق الحصيرة وجرى الى الشارع • كـــان اصدقاؤه من اطفال الجيران يلعبون كعادتهم فـــي الحـــارة الضيقـــة الممتدة امام البيوت ، يمسك كل واحد منهم بذيل جلباب الاخـــر ويصنعـــون قطارا يصفق ويرقص ،ثم يتفككون ويلعبون المساكـــة ، يختبئـــون وراء اكـــوام السباخ ، وفي الزرائب ، وخلف زير الماء ، وداخل فتحة الفرن •

رأى حميدة تجري وسط الاطفال ، وتختفي وراء كوم السباخ • جلست القرفصاء حتـــى لا يظهـــر رأسهـــا مـــن خلف الكوم ، فظهـــر فخذاها البيضاوان يتوسطهمـــا شريط رفيع من الدمور الاسمر هو سروالها • خبـــأت رأسهـــا الصغير بشعرهـــا الاسود الناعم في التـــراب حتى لا يراهـــا احد • لكـــن حميدو كـــان يراهـــا ، وكان هو « المساكـــة » هذه المرة ، فانطلق يجري نحوهـــا مثيـــرا بقدميـــه الحافيتين زوبعـــة من التراب •

ثبت عينيه على كـــوم السباخ ، متظاهـــرا بانـــه لا يراها ، وسار على اطراف اصابعه بخطوات بطيئة حذرة ، واستدار ليختفي وراء الكوم ، ثم وثب وثبة واحدة كالفهد ، وامسكها من شعرهـــا بيده اليمنى • امـــا يـــده اليسرى

فقد امتدت بسرعة البرق واستقرت فوق فخذها ، وراحت اصابعه الصغيرة الصلبة تشد سروالها . لكن حميدة رفسته بقدمها ، ونطحته برأسها ، كما تفعل في كل مرة حين يمسكها المساكة ، واستطاعت ان تتخلص من قبضته وجرت لتختبيء وراء كوم اخر .

لم تكن حميدة وحدها تلعب المساكة . كل البنات والاولاد يلعبونها ، وحين تجري البنات ليختبئن ويجلسن القرفصاء تتعرى افخاذهن الصغيرة البيضاء ، وتظهر سراويلهن الرخيصة القذرة كالشريط الرفيع الاسود بين الفخذين ، يحاول المساكة ان يمسكه ويشده الى اسفل ، لكن البنت تعرف كيف ترفسه بقدمها ، او بقدميها الاثنتين ؛ وهو ايضا لا يستسلم ، وانما يقاومها بقدمه ايضا ، او بقدميه الاثنتين . معركة صغيرة غير مرئية ،فكوم السباخ يخبيء جسديهما الصغيرين ، لكن الاقدام الاربع تطل من وراء الكوم ، صغيرة وناعمة لا تعرف قدم البنت من قدم الولد ، لان الاقدام في سن الطفولة كالوجوه ، لا جنس لها ، خاصة اذا كانت اقداما حافية، فالحذاء وحده هو الذي يحدد الجنس .

انكفأ على ظهره حين رفسته بقدمها ، لكنه نهض

بسرعـــة ، وكانت هي ايضا قد نهضت ، ورأى وجهها • لم تكـــن حميدة • تلفت حوله ، في وُجوه البنات والاولاد • جرى الى البيت يبحث عنهــا في الزريبة ، او في فتحـــة الفرن ، او خلف زير الماء ، او تحت الحصيرة •خرج مـــن البيت جريا يبحث عنها وراء اكوام السباخ ، خلف جــذع الشجرة، فوق النخلة ، في بطـــن جسر الترعة • أدبـــر النهار وهبط الليـــل ولم يعثر لها على اثر •

وقف في الظلام على جسر الترعة، ظله الوحيد منعكس على صفحـــة المياه الراكدة العكرة • ظل طفل لا يـــزال طفـــلا ، لكـــن وجهه لم يعـــد كوجوه الاطفال الناعمـــة الملساء لا تعرف الذكـــر فيهـــا من الانثى • لو كانـــت صفحـــة المياه نقيـــة كالماء العذب ربمـــا اصبحت مـــرآة صافيـــة وانعكس وجهه على صفحتهـــا بطريقة افضل • لكـــن الترعة كانت كجميع الترع ، يختلط طينها بمائها ، ويتعرج سطحهـــا البطيءالحركة بثبات وتجاعيـــد كبشرة الوجه العجوز الموغل في الزمن •

اما عينـــاه فقد اصبحتا ايضا واسعتين ، عجوزيـــن ، شاخصتين في الظلام ، ثابتتين ، الجفنـــان لا يتحركان ، والرموش تجمدت ، ودمعة كبيرة تجمدت فوق السطح •

لاول مرة تتجمد الدمعة فوق السطح ،وكانت من قبل كدموع الاطفال لاتكف عن الحركة المستمرة الى حد الزعشة كرعشة النجم المتلألىء ، ويخلط المرء في الطفولة بين لمعة الدموع ولمعة الابتسام .

لكن احدا لم يكن يخطىء في تلك اللحظة . انه حميدو الان الواقف بجسده على جسر الترعة . انه ليس طفلا . وهذه الدمعة الكبيرة ليست دمعة طفل ، وانما هي دمعة حقيقية ، لها ملمس مادي فوق الوجه، ولها طعم الملح في الفم .

ملح حقيقي ، فالدموع ككل سوائل الجسم تحتوي على الملح ، وحميدو لا يعرف كيف يعيش بغير حميدة ،فهي ليست اختا عادية ، ولكنها توأمه . والتوائم نوعان . نوع ينشأ عن الجنينين يعيشان في رحم واحدة ، ونوع اخر ينشأ عن ذكر وانثى داخل جنين واحد .

وكان حميدو وحميدة جنينا واحدا ، ينمو داخل رحم واحدة . منذ البداية كانا شيئا واحدا ، او خلية واحدة ، ثم اصبح كل شيء ينقسم اثنين ، والملامح انقسمت اثنين ، ادق الملامح انقسمت اثنين ، حتى العضلة الضئيلة الصغيرة تحت كل عين انقسمت ، ولم يعد ممكنا

لاحـد ان يعرف حميدو من حميدة ، حتـى امهمـا كانت تخلط بينهمـا •

لكن حميدو كان يعرف انه شيء آخـر غير حميده ، وان جسده منذ الولادة انفصل عن جسدها ، غير ان الشبه كـان شديدا ، والخلط بينهمـا شديدا الى حد ان الامر كـان في بعض الاحيان يختلط عليه هو ايضـا فيظـن انه حميده ، ويختفي وراء جدار ، ويرفع جلبابه عن فخذيه وينظـر بينهمـا ، وحينمـا تسقط عيناه على الشق الرفيع الصغيـر يدرك انه حميدة ، وتسقط فوقه العصا تمسكها اليـد الكبيرة فيشد الجلباب عليه ، ويبكـي بدمـوع حقيقيـة ، تختفـي بسرعـة كدموع الاطفال ، ويـرى العصا ملقاة على الارض ، فيجـري اليهـا ويأخذهـا ، ويدسهـا في جيب جلبابه الطويل ، ومن حين الى حين تمتد يـده الى جيبه يتحسسها ، وتسري صلابتهـا في اصابعه وتنتقل الصلابة الى ذراعه وكتفه وعنقه • ويشـد عضلات عنقه فاذا برأسه ينثني الى الوراء في حركة تشبه حركة ابيه ، ويتكلم من حلقه بصوت غليظ يقلـد به صوت ابيه •

وحينمـا تسمع حميدة صوتـه الغليظ تدرك ان العصا معه • لم تكـن ترى العصا بطبيعة الحال لكنها كانت

تعرف انه يخبئها تحت جلبابه ، في مكـــان ما تحت الباب •
وتجري لتهرب منه ، فيجري وراءها • ويظـــن من يراهمـــا
انهمـــا يلعبـــان ، لكـــن حميدو لم يكـــن طفلا ، وفـــي
جيب جلبابه شيء يخبئه ، شـــيء صلب يتدلى بحـــــذاء
فخذه كالعضـــو الغريب •

وحينمـــا ترفع حميدة عينيهـــا اليه وتـــرى وجـــهه
لا تعرف انه حميدو • وتتسمّر في مكانهـــا من شـــــدة
الدهشة او الذعر • لا تتحرك من مكانها • تتجمد كتمثال ،
يضع حميدو كفه فوق سطحه ، ويلمس الجفنين الحجريين
ويضع اصبعه بين الجفـــن والعين ، كاصبع كل الاطفال حين
يمسكون رأس دمية كبيرة الحجم لهـــا شعر ولهـــا رموش
تكاد ان تكـــون حقيقيـــة •

ولم يكن حميدو قد امسك في حياته قط برأس دمية
كبيرة او صغيرة • فالاطفال في الريف لا يلعبون بالدمى،
ولا يلعبون بالعرائس ، ولا يلعبون بالقطارات او مراكـــب
الورق او الكرة او اي شيء اخر • انهم لا يعرفون اللعب •
فاللعب للاطفال ، وهم ليسوا اطفالا • انهم يولدون كبارا
كيرقات الذباب ما ان تعرف ملمس الارض حتى تطير ،او
كدود المش تنفصل الدودة الجديدة عن الدودة الام فـــلا
تكـــاد تفرق بيـــن الدود الجديدوالدود القديم •

ورأى حميدو وجه حميدة مقبلا من بعيد علــى جسر الترعة . وخفق قلبه بفرحــة الاطفال القديمة ،لكنهـــا اقتربت منه . وعرف طرحــة امه السوداء تلف الــرأس وتنسدل فوق الكتفين والصدر والبطن . جرى اليها ووضع رأسه على بطنها .. لم يكــن رأسه وهو واقف الى جوار امه يرتفع لاكثر من خصرها . امتلأ انفه برائحة امه المميزة تمتزج برائحــة خبيز الفرن وتراب الحقل والجميز . كــان يحب الجميز ويجري نحــو امه حين تعــود مــن الحقــل تلف الجميز فيطرحتها ، ثم تجلس على الارض الى جواره، وتناوله الجميز واحدة واحـــدة بعــد ان تنفخ عنهـــا التــراب .

دفعته أمه بيدها . لكنه ظل ملتصقا بهــا ، متشبثــا بجسمها . واستطاع أن يضع رأسه تحت ثديها الايسر . في هذا المكان بالتحديد كان يحب أن يضـــع رأسه حين ينام الى جوارها كل ليلة . كانت تنام بعيـــدا عنه ، في الطرف الآخر من الحصيرة ، لكنه كان يصحو في منتصف الليل ، وحينما لا يراها الى جــواره يزحف اليها ، ويدفن رأسه تحت ثديها .

لم تكن تبعده عنها دائما ، وتمتد ذراعاها وتلتفــان

حوله وتضغط عليه بقوة ، بكل قوتها الى حد انها تؤلمه .
ويسري في جسده احساس غامض بأنهـــا ليست أمه ،
وليست خالته ، وليست عمتـــه ، وليست أية واحدة من
قريباته . وانما هي غريبة عنه ، وجسدها غريب عن جسده ،
غرابة تجعله يقشعر ، والقشعريرة تسري من السطح الـى
العمق ، ترجّ جسده كرعدة الحمى .

ولفّ ذراعيه حولها من شدة الرعدة ، لكنــه أحس
قبضة يدها الكبيرة القوية كقبضة أبيه تدفعه بعيدا وكـاد
يسقط في حضن الجسر ، ورفع وجهــه اليها ، ورأى عيني
أبيه الواسعتين العجوزين يجري فــوق بياضهمـا الكبير
شعيرات دموية حمراء . اشتدت الرعدة وكاد يصرخ من
الفزع ، لولا ان يد أبيه الكبيرة أصبحت فــوق فمه ،
وصوته الغليظ أصبح كالفحيح :

ـــ تعال ورائي .

الليل مظلم بغير قمر ، والشفق لم يطلــع بعد ، وكل
شيء في القرية ساكن نائم في تلك اللحظة الساقطة ما بين
آخر الليل وأول خيوط النهار قبل آذان الفجر ، وقدمــا
أبيه الحافيتان الكبيرتان تنتقلان فوق الارض المتربة بسرعة

كبيرة ، يوشك أن يجري ، وحميدو خلفه ، يكــاد يلمس ذيل ثوبه .

أراد أن يفتح فمه ويسأل أباه ، لكن أباه توقف عند سور صغير يفصل الطريق الزراعي عن قضبــان القطار . وراء هذا السور كـــان يختفي حميدو حـــين يلعبون « المساكة » . ناوله أبوه شيئا طويــلا ، صلبا وحادا ، لمع في الظلام كالسكين .

دس حميدو السكين في جلبابه فسقط في قاع جيبه وتدلى بحذاء فخذه . أحس طرفه المدبب الحاد فوق لحمه فتقلصت عضلات فخذيه وساقيه وقدميــــه ، وتسمر في مكانه . لكن صفارة القطار الحــادة جعلت الارض تهتز تحته ، فثبت قدميه في الارض يقـــاوم أي حركة كجواد جامح ، لكن يد أبيه الكبيرة دفعته في ظهره بقبضتها القوية ، وصوته الغليظ المنخفض كالفحيح :

ــ العار لا يغسله الا الدم . اذهب وراءها !

واندفع حميدو نحو القطار ، لكنه استدار لحظة قبل أن يركب ، ورأى أباه واقفــا في مكـــانه ، متسمرا في الارض ، ثابتا لا يتحرك ، والجفنان أيضا ثابتان ، والشعيرات

الدموية فوق البياض تجمدت كخيوط من الـــدم رسمت باليد فوق لوحة حقيقية .

* *

في تلك اللحظة كانت حميدة تضع قدمها فوق سلم القطار لتهبط منه . وكأنما سقطت في بحر ، بحر هائج . الامواج ليست ماء ولكنها بشر . رجال ونساء وأطفـــال يرتدون الاحذية الجلدية السميكـــة ، وعربات كالقطارات تجري صفوفا صفوفا فوق شوارع لامعـــة بغير تراب ، تتفرع وتتشابك ثم تتفرع بغير نهاية كشجرة رأسها فـــي السماء وجذرها في بطن الارض ، والبيوت عالية شاهقـــة متراصة في كتلة واحدة ضخمة تحجب السماء ، فلا ترى فيها العين شبرا واحدا ، والضجيج والاصوات والابواق تصم الاذن فلا تعود حميدة تسمع شيئا . لكن قدميهـــا الحافيتين كانتا تنتقلان وحدهما فـــوق الاسفلت ، القدم ومن خلفها القدم الاخرى ، تلك الحركة الطبيعية ، حركة المشي التي يتعلمها الانسان منذ الصغر . وكان من الممكن أن تستمر على هذا النحـــو دون توقف ، فهي لا تعرف طريقها ، ولا تعرف أين يبدأ والى أين تنتهي ، لكن حذاء جلديا سميكا داس على أصابع قدمها اليسرى وكاد يفرمها .

فترنحت لحظة ، فاذا بعربة ضخمة تكاد تدهمها ، وصرخت حميدة • انفتح فمها عن آخره وخرج منه صوتها المكتوم في صرخة حادة طويلة ، طول صرختين أو ثلاث صرخات ، أو عشر ، أو مئة ، أو ألف • صرخة متتابعة ، متعاقبة ، متصلة في صرخة واحدة طويلة •

ابتلع الضجيج الصاخب صرختها كما تبتلع أمواج البحر قطرة ، أو قشة ، أو فراشة ، أو عصفورا وليدا لا يطير • لم يسمع صوتها أحد ، وظلت الدنيا كما كانت تهدر كالشلال ، تفتت مياهه الساحقة أجساد التماسيح وأشلاء السفن ، وتذيبها ، وتظل مياهه هي مياهه ، بيضاء كما كانت •

سارت حميدة تعرج بقدمها الجريحة ، وجلست في ركن بجوار سور بعيد عن العربات والناس • أسندت رأسها الى السور وحملقت بعينيها أمامها • كل شيء من حولها يدور في غموض ، يلفّه الضباب ، كالحلم ، أو الكابوس ، الذي ستفيق منه بعد قليل ، وتقفز من فوق الحصيرة كالعصفورة • اتكأت بيدها لتقفز ، لكن كفّها لمس بطنها ، فانقشعت فجأة عن عينيها غمامة ، ولاول مرة يصبح كل شيء أمامها قابلا للفهم ، ليس ذلك الفهم المدرك

لحقائق جديدة ، ولكنه الفهم الغريزي المبهم الذي ينبعث من خلايا الجسد المرهقة في لحظات الراحة أو الاسترخاء الشديـــد .

نامت في مكانها ثم صحت جائعة . لمحت الى جوارها مخبزا ، رصّت أمامه أرغفة الخبز صفوفا صفوفا . مدت ذراعها النحيلة وأمسكت بأصابعها الصغيرة رغيفا . قربته بسرعة الى فمها وكادت تقضمه بأسنانها ، لكن يدا كبيرة لها أصابع طويلة التفّت حول ذراعها .

شهقت .. ارتفـــع صدرها بالشهقـــة فظهر ثدياها الصغيران من تحت الجلباب الواســع كزيتونتين ، وبرز بطنها المنتفخ كبالونة الاطفال ، والطرحة السوداء لا تزال تغطي رأسها وشعرها وتنسدل على كتفيهـــا حتى أسفل ظهرها قبل ردفيها الصغيرين بقليل .

رفعت عينيها المذعورتين ورأت أمامها عينين واسعتين تحملقان فيها . شدّت طرحتها وأخفت بها نصف وجههـــا كما تفعل نساء قريتهـــا . ظهرت عينها الوحيـــدة واسعة سوداء فيها نظرة مشدوهة لا تزال بها لمعة طفولة ساذجة . لمعة عين كانت مغمضة ، ففتحت لاول مرة على عالم بغير

حدود ، وصنع الذعر حولها عضلة مشدودة بدت كالدائرة المفتوحة أو كعلامة استفهام مبتـــورة الذيل ، والدموع الجافة خلعت فوقها طبقة كالسحابة الخفيفة ، يزحف نحوها من زاوية الانف احساس جديد بأنها أنثى وليست ذكرا ، أنوثة لم تكتمل بعد ، ولم يعرفها أحد بنفسها ، ولكنها هي التي اكتشفت نفسها بنفسها منذ لحظات ، فاذا بها فجـة طازجة لا يزال يعلوها الندى •

تملّصت من اليد الكبيرة واستطـاعت أن تفلت • وانطلقت تجري • جرى وراءها• دخلت في شارع واختبأت وراء باب من الابواب • أطلت برأسها فلم تجـــد أحدا • خيل اليها انها نجت ، لكن الذراع الطـــويلة امتدت من الخلف وأمسكتها من رقبتها ، وصـــوت خشن غليظ دبّ في أذنها :

ـ قبضت عليك يا لصة ! أمامي الى القسم !

استسلمت • تركت ذراعهـا النحيلة البيضـــاء في قبضته ، قبضة يد غليظـــة كبيرة ، لها خمســـة أصابع ، مفاصلها بارزة وعظامها مقوسة ، والعروق من تحت الجلد نافرة ، وتحت الاظافر السميكة طبقـــة طينية سوداء •

زحفت عيناها فوق ذراعه الطويلة ورأت كتفيه • كتفان عريضتان ، فوق كل كتف صف أفقي من خمسة أزرار نحاسية ، يفصل بينهما عنق غليظ ، التفّت حوله ياقة عالية ، اسودّت من الداخل بسبب التراب الذائب في العرق ، تدور الياقة حول عنقه باحكام ، ثم تهبط من الامام فوق صدره في صف رأسي من عشرة أزرار نحاسية • كانت حميدة قد تعلمت شيئا من الحساب في المدرسة الالزامية ، فأخذت تعد الازرار • خمسة فوق كل كتف ، أي عشرة فوق الكتفين ، وعشرة فوق الصدر ، فيكون المجموع عشرين زرا •

النهار كان قد انتصف ، والشمس أصبحت متوهجة ، ينعكس قرصها الاحمر فوق الازرار النحاسية المستديرة ، فتبدو كعشرين قرصا شمسيا تدمع العين لمجرد النظر اليها ، ولا تقوى على الحملقة فيها فتنطرق الى الارض • لكن الارض تلتهب تحت قدميها الحافيتين بسخونة لم تعهدها في الارض من قبل ، وحذاؤه ذو الرقبة الطويلة يدبّ بصوت معدني غريب ، يشبه احتكاك الحديد بالحديد • وخطوته واسعة ، وقدمه حين ترتكز على الاسفلت تصبح ثابتة ، والقدمان ترتفعان الى ساقين

طويلتين داخل بنطلون من قماش سميك لـه جيب طويـل كالسرداب تختفي فيه آلة صلبة حـادة ، وتتدلى بحـذاء فخـذه .

دخلا من الشارع الواسع الى شارع ضيق . الاصابع الطويلة لا تزال تلتفّ حول ذراعها . لكنها ليست خمس أصابع كما كانت . أصبحت أربـع أصابع . أمـا الاصبع الخامس فقد انفصل عن بقية الاصابع وصعد وحده الـى أعلى ، فوق الذراع الناعمـة ، حذرا متلصصا ، ثم دفن رأسه الاسود الغليظ تحت الابط الاملس الطفولي الذي لم ينبت فيه الشعر بعد .

شدّت ذراعها . لكن الاصابع الاربعة تقلصت على لحمها الطري ، والاصبع الخامس امتد مـن تحت الابط واصلا ببوزه الاسود المدبب حتى الارتفاعة الناعمة لبرعم الثدي ، يضغط عليه ضغطات حـذرة مرتعشة متقطعة ، تزداد شدة في ثنية شارع ، أو خلف جـدار ، وتخفّ أو تنعدم تماما في وسط الشارع ، وأحيانا يتراجع الاصبـع الخامس سريعا ويلتصق باخوته الاربعة حين يمران أمـام حشد من الناس .

ملأت أنفها فجأة رائحة تتنة . ووجدت نفسها فـي

زقاق ضيق مظلم • أمام باب خشبي صغير رأته يتوقف • أخرج من جيبه مفتاحا • دفعها أمامه الى الداخل ثم أغلق الباب •

لم تر شيئا أول الامر ، فالظلام دامس • أشعل بعود ثقاب مصباح كاز صغيرا فظهرت على الفور أرض بلاط ضيقة ، في أحد أركانها بساط يشبه الحصيرة ونافذة حديدية صغيرة فوقها قلة ماء • جدران الحجرة تبدو في الضوء الخافت رمادية يعلوها سواد كالهباب الذي يحدث من موقد الكاز • على أحد الجدران مسمار عليه بدلة من قماش سميك يشع من فوق صدرها وكتفيها العريضتين المحشوتين أزرار نحاسية صفراء ، لمعت في الظلام كعيون مفتوحة مريضة بالتهاب الكبد الفيروسي • على الارض استقر الحذاء الضخم برقبته الطويلة كحيوان بغير رأس ، والى جواره سروال أبيض اصفر ظهره واسود بطنه ، تفوح منه رائحة بول قديم •

رفعت رأسها من فوق البلاط فرأته واقفا عاريا • كتفاه العريضتان أصبحتا نحيلتين ضامرتين عظامهما بارزة ، وساقاه أصبحتا رفيعتين معوجتين ، وقدماه الضخمتان السميكتان المرتفعتان عن الارض أصبحتا لا يفصلهما عن

البلاط شيء ، والآلة الحادة الصلبة التي كانت مختفية في جيبه أسبحت ظاهرة •

شهقت بدهشة مليئة بالذعر • قاومت الذعر برد فعل غريزي • لكنه طرحها على الارض ، وشد باصبعه الغليظ جلبابها من فتحة العنق فانشطر الثوب البالي شطرين ، ولم يكن هناك ملابس داخلية تحت الجلباب •

قالت بصوت ضعيف مشروخ :

ــ انت مين ؟

رد بصوت آمر غليظ :

ــ أنا الحكومة •

قالت :

ــ ربنا يطول عمرك سيبني أروح •

رد بصوت آمر غليظ :

ــ تروحي فين يا بت ، انت محكوم عليكي •

كل شيء أصبح يتحرك بسرعة فائقة ، بسرعة الانفاس التي تلهث ، وبسرعـــة العضلات التي تنقبض وتنبسط ، سرعة غير عادية لا تحدث الا في الاحـــلام ، لكن الحلم لم يختلط هذه المرة ، لم يكن هناك بائع يضرب بالعصا ،

وانما هو ذكر له شارب خشن يحتك بوجههـــا ، وتسد رائحة التبغ أنفها ، وشعر صدره غزير ، تلاحمت شعراته الطويلة والتصقت فوق الجلد بعرق سميك لزج .

وكل شيء توقف فجأة . لحظة سكون تشبه لحظـة الموت . رفعت رأسها من فوق البلاط وتلفتت حولهـا . رأته راقدا على ظهره ، عيناه مغمضتان ولا يتحرك . ظنت انه مات ، لكن شخيرا خافتا بدأ ينبعث من فمه المفتـوح ، ما لبث أن ارتفع وأصبح كخرير ساقية عتيقة يجرها ثـور منهك مريض . رفعت جسمها بهدوء من فـوق الارض ، وشدّت طرفي جلبابها المشطور فـوق صدرها وبطنها . سارت على اطراف اصابعها الى الباب . حركت رأسهـا بهـدوء ونظرت خلفهـا . رأت العيون العشريـن الصفراء مفتوحـة تحملـق فيهـا . فتحت الباب بسرعة .

رأت الشارع الواسع أمامهـا ، فانطلقت فيه بكـل قوتها تجري هاربة بغير توقف .

* *

في تلك اللحظة ، كان حميدو قد هبط من القطار ، وأصبح ظهره ناحية الجنوب ووجهه ناحية الشمال ، وعيناه أمامه تنظران ، تحملقان في الوجوه المحتشدة خارج محطة

باب الحديد ، المحطة الرئيسية القديمة لمدينة القاهرة ، وقدماه الحافيتان تنتقلان فوق الارض الاسفلت ، وجلبابه طويل واسع ، تهتز من تحته السكين ، وتتدلى بحذاء فخذه كطرف صناعي أو عضو مزروع .

ارتطم بوز السكين الحاد المدبب بلحم فخذه فاقشعر جسده ، وسرت القشعريرة في عنقه ورأسه . ترنح ، وكاد يسقط بين الاحذية الجلدية السميكة ، لكنه شدّ عضلات ساقيه وظل منتصبا فوق قدميه الحافيتين ، وعيناه تائهتان في الخضم الواسع المتلاطم ، ترتفعان مع قمم العمارات الشاهقة ، وتهبطان مع شعاع الشمس المنعكس على الاسفلت اللامع ، وتدوران مع حركة الميدان المستدير ، وفي مركز الدائرة تمثال حجري ضخم له رأس انسان ، تلفّ حوله صفوف من البشر ، والاعلام ، وصفوف من العربات ، تلفّ وتدور ثم تتفرع منتشرة في خطوط مستقيمة متعددة ، لا تلبث أن تتشابك وتصبّ في ميدان آخر ، ثم تتفرع ، وتنقسم الفروع الى فروع ، تتفرع ، وتتشابك ، وتتفرع بغير نهاية .

أخفى عينيه بيديه ، وأسند رأسه الى عمود نور . غلبه النوم فنام وهو واقف على قدميه . فتح عينيه على صوت . تلفّت حوله . رأى الشارع الواسع هادئا خاليا

من الناس والعربات ، غارقا في ظلمة الليل • ثقب الظلمة بعينيه الحادتين • لمح شبحا يجري من بعيـــد ، قدمـاه حافيتان ، والجلباب الواسع الطويل يرتفـــع فوق البطن ارتفاعة مرئية واضحة •

انفرجت شفتاه وتدافعت أنفاسه لاهثـا : حميدة • وانطلقت قدماه فوق الاسفلت ، يـــده اليسرى مرفوعة أمامه تشق الظلمة ، ويده اليمنى في جيبه تتحسس النصل الحاد الصلب • توقف الشبح في ركن مظلم • اقترب منه حسيدو بخطوات بطيئة حذرة • أصبحت المسافة بينهمـــا خطوة واحدة • سمع الصـــوت الخشن يهمس كالفحيح : « العار لا يغسله الا الدم » • انتزع السلاح مـــن جيبه وأخفاه خلف ظهره • كشف الركن المظـــلم فجأة ضوء كشاف متحرك • رأى وجه أمه من تحت الطرحة السوداء • صرخ • دوت صرختـــه في الليل فتوقف الضــوء فوق وجهه • اقترب منه شخص لم ير عينيه في الظلام ، لكــن على كتفيه وفوق صدره رأى صفين مـــن العيون المحملقة المستديرة تشع ضوءا أصفر •

انفرجت شفتاه ليسأل ، لكن كفا كبيرة غليظة سقطت فوق صدغه ، تبعتها كف أخرى فوق الصدغ الآخر • رفع

ذراعه ليقاوم الصفعات لكـن خمسة أصابع التفّت حول ذراعه • استعان بذراعـه الثانية فارتفعت في الجـو ذراع خشبية كالشومة سقطت فوق رأسه •

حينما فتح حميـدو عينيه شعر بصـداع شديد • تحسس رأسه وعثر بين الشعر على الجرح تغطيه قشرة من الدم الجاف • هرشها فسقطت على الارض الى جوار حذاء ضخم يرتفع الى رقبة جلدية تحوطها ثنية بنطلون من قماش سميك ، والساقان طويلتان ترتفعان الى صدر مربع عريض رشق عليه من الامام وفوق الكتفين صفّان مـن الازرار الصفراء المستديرة ينعكس عليها ضوء مصباح خافت •

داس الحذاء الضخم عـلى قشرة الدم وهرسهـا بوحشية ، ثم دبّ فوق الارض فارتفع في الجو صـوت غليظ خشن :

ــ ما اسمك ؟

ــ حميدو •

مشت الموسى الحادة فـوق جلدة رأسه فأصبحت صلعاء ، وسقط شعر رأسه الغزير في جردل مع جلبابـه الطويل الواسع • كانت الشمس مائلة في أول الصبـاح

المبكر ، فرأى ظل شخص طويل عريض الكتفين يتبعه فوق الارض • توقف الظل • تحرك فتحرك • ضرب الارض بقدمه فسمع صوتا معدنيا غريبا لم يعهده من قبل حين كان يضرب الارض بقدمه الحافية • نظر الى قدميه • رأى الحذاء السميك الضخم يرتفع في الرقبة الجلدية الطويلة والبنطلون من القماش السميك وداخل كل منهما ساقه الحقيقية النحيلة ، والساقان ترتفعان الى صدر عريض مربع مغلق بصف من الازرار النحاسية ، والكتفان عريضتان محشوتان بالقطن أو القش •

داس بحذائه على الارض في خطوات بطيئة وجلة • داخل كل فردة حذاء ترقد قدمه النحيلة الصغيرة منكمشة، منضغطة تحت الجلد السميك ، أصابعها رفيعة بيضاء ، لا يجري فيها دم ، ولا تسري فيها حركة ، ميتة أو شبه ميتة ، وحركتها داخل الحذاء معدومة • الحذاء هو الذي يحركها ، يرفعها ويخفضها ، وينقلها فوق الارض خطوة خطوة • وفي كل خطوة يصطك حديد الكعب بالاسفلت محدثا صوتا معدنيا وبطيئا كاصطكاك حافر عجل مريض مساق الى المذبح •

توقف ، فتوقف الظل الاسود المرسوم بعناية فوق

الارض ، رأســـه حليق أملس انعكست عليه الشمس ، والعينان ثقبان في الرأس ينفذ منهمـــا الضوء ، والعنق عضلاته مشدودة ، وعضلات الظهــر مشدودة ، وجــدار البطن مشدود من تحته معدة مشدودة ضامرة لم يدخلها الا دخان أسود ، ولعاب أسود ، وكسرة خبز مقددة غمست في عسل أســود ، مع قطعة من بصل،أو قطعة مخلل تلسع كالعلقم ، يصلح بالعلقم طعم العسل الاسود ، ثم يصلــح طعم العلقم بالدخان الاسود ، يشفطه بأنفه وفمه وبلعومه ليملأ به صدره ، ويضغط به على معدته فيتجشأ كالــذي شبـــع .

لسعه كرباج رفيع خلف عنقه فتحركت قدماه فــوق الارض . القدم اليمنى أولا ثم القدم اليسرى . اصطك الحديد بالاسفلت في دقات منتظمــة ، كدقات الساعة ، أو ضربات القلب : كب . دب . كب . دب . شمــال . يمين . شمال . يمين .

دوى الصوت القوي الخشن في الجو :

ــ قف !

اصطكت فردتا الحذاء بعضهما بالبعض ، والتصقت ساقاه وفخذاه بعضلات منقبضة . امتدت يده اليمنى فــي

جيبه واستقرت فوق آلة القتل الصلبـــة ، تستد صلابتها بحذاء فخذه وتنتهي برأس معدني مدبب ومثقوب .

صاح الصوت الخشن :

ـ انتباه !

التفـّت أصابع يده اليمنى حول الآلة ، أربعة أصابع فقط وانفصـل الابهـــام ليصبح وحـــده فوق الزنـــاد ، واحدى عينيه صوبت الى النقطة المحددة الثابتة في منتصف المسافة بين العينين المفتوحتين .

فتح فمه ولهث لكن يدا قوية ضربته على بطنـه والصوت الخشن دبّ في أذنيه :

ـ اغلق فمك واكتم نفسك .

أغلق فمه وكتم نفسه .

صاح الصوت الخشن الآمر :

ـ العار لا يغسله الا الدم !

وضغط بابهامه على الزناد .

سمع دويا لم يسمعه من قبل ، ورأى جسدا يسقط على الارض يجري من تحته سائل أحمر عرفه على الفور . انه دم الشاة . فاليوم هو العيد ، وهو لا يزال واقفـــا

يحملق في العينين المفتوحتين ، الساكنتين ، لا يرمش لهما جفن ، ثابتتين بنظرة ميتـــة ، اتسعت وامتلأت بالذعر ، وانتقل الذعر اليه فارتجفت ساقاه النحيلتان تحت الجلباب الواسع ، وجرى ليدفن رأسه في صدر أمه ويبكي .

ومسح دموعه في صدر أمه ثم رفع عينيه اليهـا ، ورأى عيني أبيه تكسوهما الشعيرات الدموية . والازرار النحاسية الصفراء فوق الصدر والكتفين كانت لهـا لمعة خاصة ، والصوت الاجش كانت له خشونة آمرة مخيفة : أتبكي كالنسوان ؟

وعاد حميدو الى مكانه من الصف . وقف منتصبا ، تحت قرص الشمس ، عينـــاه بلون ضـــوء الشمس ، حمراوان ، سوادهما هرب تحت الجفن في الظل ، في المكان الامين الرطب . الجـو في الخارج شـــديد الحرارة . الاسفلت ملتهب ، أذابته السخـــونة الشديدة فأصبحت كعوب الاحذية تنغرز فيه كما تنغرز في الارض الطينية .

توقف حميدو لحظة ليشد حذاءه . تخلف خطـوة عن الصف . لسعه الكرباج عـــلى قفاه . قفز ليلحق بالصف لكنه إنكفأ على وجهه وسقط على الارض .

قبل لحظة السقوط كان حذاؤه قد انخلع ، وكان الهواء الساخن قد اندفع في صدره على شكل كلمة منطوقة لها صوت أدرك انه صوته حين ينطق • وأدرك ان جسده هو الذي سقط على الارض وليس جسدا آخر ، وان الدقات المنتظمة المسموعة في أذنه تنبعث من صدره • وشعر بزهو لقدرته على تمييز جسده عن جسد الشاة •

ظهر الزهو في عينيه ، وكان وجهه لا يزال ناحية الارض ، فطارت البصقة من الفم الغليظ واستقرت فوق مؤخرة رأسه ، تبعتها سبّة مألوفة للاذن (اسم من أسماء الاعضاء التناسلية المؤنثة) ، تبعتها لكمة قوية ببوز حذاء سميك في ظهره فوق الكلية مباشرة •

هذه اللكمة ببوز الحذاء لم تكن تحدث كل مرة بهذه القوة نفسها • وكنت أرى حميدو ينهض بعدها ويجري ويدخل الصف • لكن اليوم كان العيد • وسيده سيحضر الحفل بشخصه لا بمندوب ، ومن الطبيعي ان أي خطأ لا يغتفر ، وان كان زلة قدم • لم تكن زلة القدم في ذلك اليوم مجرد زلة قدم ، ولكنها تصبح شيئا آخر أشد خطورة • لان الصف يصبح مشوها • وحين يشوه

صف تشوه الصفوف الاخرى بطبيعة الحـال • وهـذه كارثـة •

واختلطت الاشياء أمام عيني حميدو • لم يكن ذلك لقصور في قدرته على الملاحظـة ، بسبب ضيق الوقت أيضا • فالوقت في مثل هذا اليوم الهام يصبح ضيقا، ووقع الحياة يصبح سريعا لاهثا ، فلا يمكـن لانسان أن يتنفس التنفس الطبيعي ولا بد أن يلهث الجميع •

ولهث حميدو كغيره من البشر فلمحته عين • دائما هناك عين تلمح ، ترقب الاشياء ، وتدس أنفهـا بتطفل شهواني في حياة الغير أو موتهم • لا تترك الحي يستمتع بحياته ، ولا الميت يستمتع بموته • وضم حميـدو ساقيه باستحياء (كان قد اكتسب قدرا من الحياء) ، وأفسح الطريق لموكب العربات • لكن الوقت كان ضيقا الى حد ان ساقه اليسرى لم تجد متسعـا من الوقت لتتحرك وظلت ممدودة في الطريق ، حافيـة ، وأصابع القدم الخمسـة منتصبة ، تهتز بحركة مرئية بالعين المجردة •

توقف الموكب مشدوها أمام المشهد الذي لم يحدث من قبل ولا من بعد • لم تذكر كتب التاريخ حادثة من هذا

القبيل • لكن ما يكتب في التاريخ شيء والذي يحدث في الواقع شيء آخر • وما حدث في الواقع كان يستحق أن يدخل التاريخ لجسامته ، لكن التاريخ بطبيعتـــه لا يفتح بابه للحوادث الجسيمة ، خاصة اذا كان بطلها حميدو •

لم يشعر حميدو ببطولته رغم الزحام الـــذي أصبح حوله • أعداد هائلة من البشر تجمعت في لحظة خاطفة • وامتلأت المساحات الخاليـــة بين العمارات بالاجســـاد ، وانسدت الابواب والنوافـــذ بالرؤوس ، وترك النـــاس مكاتبهم ودواوينهم وأغلقوا حوانيتهم واصطفوا صفـــوفا متلاصقة يستمتعون بالمشهد • لا أظن ان أحـــدا تخلف ، صغيرا أو كبيرا ، ذكرا أو أنثى ، من الطبقة العليا أو من الطبقة الدنيا ، فالكل يريد أن يستمتع ، واللذة عامـــة ، ومشروعة بشرط أن تكون في الخفاء •

وكان حميدو لا يزال في موقعه من الارض ، وعيناه مغمضتان بطبيعة الحال بسبب الموت ، لكنه رأى (ورؤية الميت أشد حدة من رؤية الحي) رجالا كثيرين من حوله • عرف انهم رجال بسبب رؤوسهم الحليقـــة ، وخراطيمهم المطاطة ، وأزرارهم النحاسية ، وآلات القتل الصلبة المتدلية بحذاء أفخاذهم •

حاول أن يفتح فمه ليدافع عن نفسه ، ليحكي قصته منذ ولدته أمه ، لكن سيده كان حاضرا ، وفي حضـــور سيده يصبح الوقت ضيقا ، ولا يكون هناك متسع لاحد ، والحكم بطبيعة الحال لا بد أن يصدر أولا ، ويوقع عليه بالعلم ، وينفذ ، ثم يتسع الوقت بعد ذلك لاي شيء آخر .

وصدر الحكم ضد حميدو فوق صفحة كاملة مـــن صفحات دفتر الاحكام ، وكان القانـــون يقضي بأن يقرأ حميدو المحضر قبل أن يوقع عليـــه بالعلم . ولـــم تكـــن الحروف واضحة بسبب رداءة الخط والسرعة في كتـــابة المحضر ، وأصبح من الصعب على حميدو أن يفك الخط ولم يكن حميدو قد تعلم القراءة .

لكنه استطاع أن يلتقط كلمـــة أو كلمتين من كل سطر . ودهش لقدرة رجال البوليس على تحويله من جندي مجهول الى بطل ، وأن تكون بطولته خارقة للعادة الى حد ان حركة أصابع قدمه الحافية في وجه سيده أصبحت حركة تمرد . ولم يعد حميدو قادرا على كتمان زهـــوه ، وراح يحرك أصابع قدمه حركة بطيئة مليئة بالكبرياء .

وارتفعت جميع الاكف بالتصفيق . وكان سيده في

الصف الاول . فارتفع كفّاه أيضـا بالتصفيق (حركـة سيده كحركة التاريخ لا يمكن أن تتجـاهل الجماهير) . وحينما تحركت ذراعاه الى أعلى وهو يصفق ، سقط فوق الارض الساندويتش المحشو بلحم الشاة الذي كان يخفيه تحت ابطه ، التقطه على الفور طفل كسيح كان يزحف بين الصفوف بأكياس اللب .

وابتسم حميدو رغم انه لم يدرك شيئا مما يـدور حوله ، فالمشهد لاارادي ولا فضل له فيه ، وغير متقـن أيضا ، يفتقر الى الخبرة ، وتنقصه الثقافـة الضرورية ، والاطلاع على التراث . ولم يكن حميـدو قد قرأ كتب التراث ، وعلى الاخص قصص الحب العذري ، حين كان الحب نظيفا والانسان شريفا ، لم تخلق له بعد أعضـاؤه التناسلية .

لكن آدم اقترف الخطيئة العظمى (كما كانت تحكي له أمه) فاذا بعضو قبيح المنظر ينمو بين فخـذيه . انتقام الهي عادل على حد قول أمه . وهنا خطر له سؤال لم يخطر له من قبل (ولعل سبب ذلك ان جسده كان ميتا فأعطـى نفسه حق التفكير في المقدسات) ، وكان السؤال هـو : كيف اقترف آدم الخطيئة قبل أن يخلق له هذا العضو ؟

وأراد أن يطرد عنه هــذه الفكرة ، فالتفكير في مثل هذه الامور عمل غير أخلاقي ، خاصة في حضور سيده • واختلس حميدو نظرة سريعة بين فخذيه فلم يجد العضو ، ووجد مكانه شقّا صغيرا يشبه الشق الذي كان يراه في جسم حميدة • واعتقد ان في الامر خطأ ما ، وان أجســاد الموتى اختلطت بعضها بالبعض ، وعند الفرز النهائي أعطوه جسد امرأة • دائما هناك خطأ في الفرز النهائي • فالموظف الذي يفرز ضعيف البصر بسبب الــدرن الرئوي • وهو الوحيد المكلف بالفرز • (الميزانية لا تسمح بموظف آخر) وعليه أن ينقل الاسماء من كشوف الفرز الابتدائي الــى كشوف الفرز النهــائي • وحروف بعض الاسماء متشابهة، وأسماء الاناث لا يفرقها عن أســمــاء الذكور الا التــاء المربوطة ، أمين يصبح أمينة ، وزهير يصبح زهيرة ، ومفيد يصبح مفيدة ، وحميدو يصبح حميدة • أي انها ليست الا جرة قلم ويصبح الرجل امرأة •

وكان حميدو يحب أن يكون امرأة أحيــانا ، وفي أحيان أخرى يقاوم ذلك مقاومة شديدة • فالمرأة في ذلك الوقت كانت تكلف بأعمال الخدم المهينة ، كأن تمسح حذاء الرجل بعد أن يخرج من دورة المياه أو تناوله كوب مــاء

وهو راقد فوق ظهره يتجشأ بصوت عال (كان مسموحا للرجل فقط أن يتجشأ بصوت عال) ، أو تغسل جوربه النتن ، أو سرواله الاكثر نتانة بسبب البول وعدم توافر الماء والصابون .

ويحاول حميدو تصحيح الامر ، لكن التصحيح لم يكن سهلا بأي حال من الاحوال . اذ عليه دائما أن يثبت انه ليس امرأة ، وفي كل مرة يستدعون الطبيب الشرعي ، الذي ينزع سرواله القذر بتأفف ، وينظر بين فخذيه بكل وقاحة . وأحيانا لا يستوثق تماما من مجرد النظر ، فيمد أصابعه الانيقة ذات الاظافر المشذبة ويفحص العضو المنكمش ، المذعور ، ويقيسه من جميع الزوايا بمسطرة مدرجة من البلاستيك ، ويسجل الارقام بقلمه الباركر في دفتر خاص ، ثم يرسلها داخل مظروف مغلق بالشمع الاحمر الى قسم الفيش والتشبيه .

وهذا هو القسم الذي يختلط فيه الحابل بالنابل ، وتختلط فيه بصمات أصابع اليد مع أصابع القدم مع غيرها من أعضاء الجسم . وتتشابك ذيول الارقام مع رؤوسها ، ويسقط منها أجزاء ، وتنطمس أجزاء . والسبب في ذلك رداءة الحبر المغشوش (الغش كان منتشرا في ذلك الوقت

ويمكن لجردل ماء أن يضاف الى زجاجة حبر) .

وظلت حقيقة أمره بهذا الشكل معلقة لبضع سنوات ، لا يقطع أحد فيها برأي ، ولا يستدعيه أحد لاعادة الكشف. وظن حميدو ان الموضوع أصبح منسيا أو كأنه ما كان . وسار في الشارع باطمئنان ، الى حد انه دخل محلا للحلاقة ليحلق لحيته الطويلة . وجلس على الكرسي المريح المتحرك ، وهز قدميه باسترخاء ، وشد احدى الجرائد القديمة من فوق المنضدة ، وقلب صفحاتها بغير اهتمام . لكنه ما أن وصل الى الصفحة الاخيرة حتى اتسعت عيناه بالدهشة . كانت صورته منشورة في ذيل الصفحة ضمن صور المشبوهات ، ولم يكن البغاء محرما في ذلك الوقت ، فأمسكوه وأعادوه الى الخدمة .

* *

كانت حميدة في ذلك الوقت قد اهتدت الى مهنة شريفة (الشرف في ذلك الوقت كان معناه الخدمة بالبيوت) . تلقنت أول درس في الخدمة ، وهو أن تنادي الاناث بكلمة « ستي » وتنادي الذكور « سيدي » . وأدركت ان رضا أسيادها عليها يزيد كلما زادت اطراقة رأسها وهي تمر أمامهم ، وأصبحت تثني نصفها الاعلى

فوق النصف الاسفل بصفة دائمة ، فالبيت يحميها من الشارع ، والشارع فيه رجل يتربص بها ولا يكفّ عن مطاردتها .

المطبخ كان حياتها ، وبالذات البقعة المربعة الرطبة أمام الحوض ، ويداها الصغيرتان في الماء الجاري من الصنبور ، ليل نهار ، وصيف شتاء ، وعيناها السوداوان تواجهان الحائط من تحت طبقة الدموع الجافة ، تذيبها من حين الى حين نظرة ملتهبة حادة كالسيف ، تشق الحائط ، وتنفذ الى حجرة الطعام ، حيث مائدة الاكل المستديرة تحوطها تسعة أفواه ، تنفتح وتنغلق على شدقين منتفخين ، يتحرك الفك الاعلى فوق الفك الاسفل ، والاسنان كتروس الطاحونة تصطك وتهرس ، ويتراكم في الحوض صفوف الصحون الفارغة ، تعلوها طبقة دهنية متجمدة ، وتمتلىء صفيحة القمامة حتى الحافة ببقايا الاكل غير المهضوم ، وتنسد ماسورة المرحاض ببقايا الاكل المهضوم .

وفي منتصف الليل ، وبعد أن تمسح أرض المطبخ ، تدسّ في فمها قطعة خبز ، وتشد بأسنانها على قطعة جلد أو قطعة عظم داخلها بقايا نخاع ، ثم تضع جسمها الصغير

بجلبابها المبلل فوق الدكة الخشبية وراء باب المطبخ ، وتترك أصابعها المتورمة المحتقنة تنز سائلا أصفر بمثل حرارة الدم ، وأذنيها الصغيرتين تتابعان الفحيح الذكري العدواني المنبعث من حجرة النوم يتبعه الانين الانثوي الذليل وقعقعات مفاصل السرير حين يرتج •

أغمضت عينيها ونامت • تخفف جسدها من العبء ، وزال الالم من يديها وقدميها ، وأصبحت تتنفس بهدوء ، هدوء مألوف ، تسربت من خلاله صور مألوفة ، راقدة في قاع الجمجمة ، قاع مظلم ، تتراقص فيه ذؤابة متهالكة من الضوء ، وتبدو الجدران طينية سوداء يلمع فوقها قش التبن الاصفر ، ترتفع الى فتحة مستديرة كالنافذة ، وتهبط الى بساط كالحصيرة ، ترقد على الطرف البعيد أمها ، طرحتها السوداء حول رأسها ، ويدها كالوسادة تحت صدغها ، وفي الطرف الآخر تنام حميدة ، عيناها نصف مغلقتين كعيون الاطفال حين ينامون على قصة عفاريت مخيفة ، وشفتاها نصف منفرجتين عن أسنان صغيرة شفافة نبتت حديثا مكان الاسنان اللبنية، وأنفاسها لها رائحة الاطفال حين يتنفسون كتنفس الزهر المغمض قبل طلوع الفجر وسقوط الندى ، ونهداها مدببان تحت

الجلباب الواسع كبرعمين نبتا منذ لحظات ثم انضغطا فجأة تحت اليد الكبيرة المفلطحة كالبلطة ، التي أصبحت تزحف متسللة تحت الجلباب ، ترفعـــه عن الساقين الصغيرتين والفخذين ، والاشياء تختلط في شيء واحد ، في عصـــا واحدة غليظة في يد البائع ، يضرب ، ويضرب على رأسها، وصدرها ، وبين فخذيها ، وهي تصرخ ، لكن صوتهــــا لا يخرج ، وتبكي وحدها بالليل بنشيج مكتوم ، وتبتلع دموعها كلها قبل الفجر،وفي الصباح الباكر تبصقها كلها في دورة المياه ، قبل أن يصحو أحد ، وتشد قامتها ، وتنظـــر فـــي المرآة الى عينيها المغسولتين المرفوعتين في تساؤل .

تساؤل لا أحد يجيب عليه ، رغم ظهرها المحني بعض الشيء ، وأصابعها المتورمة المتقيحة ، وكعبيها المشقبين ، وقدميها الحافيتين تصعدان سلم الخدم ، وسلم الخـــدم حلزوني وملتو متعرج ، وعند كل ثنية شق مظلم يتســـع لجريمة سرية ، وصفيحة قمامة فاضت بها القمامة ومـــلأت الارض بذباب وصراصير صغيرة تزحف مـــــن تحت عقب الباب الى الشقق الانيقة الفاخرة .

من يرى حميدة وهي صاعدة السلم أو هابطة لا يرى عليها سمات الخدم . ما هي سمـــــات الخدم ؟ عيناهـــا

مغسولتان مرفوعتان الى أعلى • بعد العينين لا شيء يهم •
وكل شيء يمكن ان يكون متقرحا مغلقا على الصديد، وقدماها
تغوصان حتى الركبتين في القمامة ، قمامة عضوية لان
أصحابها من أكلة اللحوم ، ورائحة اللحم الميت أشد فسادا
من النبات الميت ، ومع ذلك تدوس حميدة بقدميها على
الرائحة وترفع عينيها للسماء ، وتدرك ما لا يدركه أحد •

ذلك ان قمامة الإنسان تزداد بازدياد مكانته في
المجتمع • فالمعدة التي تأكل بفتحتها العلوية اكثر من غيرها تخرج
من فتحتها السفلية بطبيعة الحال اكثر من غيرها • ومعدة
سيدها بغير جدال اكبر معدة ، وقمامته بالطبيعة أضخم
قمامة ، يضعها الخدم في صفائح ، تحملها عربات مصفحة ،
وتجمع على شكل هرم عال في مكان بعيد في الصحراء ،
يتفرج عليه السياح بانبهار •

اهرامات صغيرة من القمامة في ركن كل شارع ، يفد
اليها من حين الى حين جرذان، وكلاب ضالة، وقطط صغيرة
عيونها مستديرة لامعة مرفوعة الى أعلى كعيون الاطفال
وأصابعها منتفيحة كأصابع حميدة ، تفتش بسرعة عن قطعة
خبز ، وشيء من غموس لم يتعفن بعد •

وخرجت اصابعها من صفيحة القمامة تلتف حول شيء،فتحت يدها لتراه ، لكن ضوءا مفاجئا سقط فوق كفها . اختفت بسرعة وراء الجدار . لكن الضوء تبعها ، وظل طويل ارتسم فوق الارض ، رأسه حليق اصلع،وكتفاه عريضتان،فوق كل كتف،صف افقي من خمسة ازرار صفراء تلمع . عرفته على الفور فشهقت بصوت عال ، وفتحت عينيها على صوت سيدها الخشن :حميدة.ورأت الشاة تدخل من الباب يسوقها الجزار. ادركت ان اليوم عيد لذكرى وفاة سيدتها .

التقت عيناها بعيني الشاة . توقفت الشاة . تسمّرت قوائمها الاربع في الارض . ظلت عينا حميدة تحملقان في الدائرتين السوداوين ومن حولهما البياض الصافي ، تكسوه لمعة مفاجئة، تتحرك فوق سطح العينين ، ترقرق ، كدمعة كبيرة ثابتة لا تتبخر ولا تسقط . اتسعت عيناها بالدهشة . تلك الدهشة التي تحدث لانسان يرفع رأسه فجأة فيرى عينيه في مرآة لم تكن موجودة .

شدّ الجزار الشاة من حبل قصير يلتف حول عنقها. تبعته الشاة . لكن عنقها ظلّ ملويا الى الخلف ،

ناحية حميدة . التفّت اصابع الجزار الكبيرة الغليظة حول العنق ، رفسته الشاة بيديها وقدميها الصغيرتين . امتدّت نحوها اربع اياد قوية، شدت ذراعيها وساقيها بعيدا ،واصبحت الشاة ممدودة فوق ظهرها ، وعيناها السوداوان الواسعتان مفتوحتان بالذعر ، تبحثان في العيون حولها عن عيني امها . كانت امها تقف على مسافة غير بعيدة ، عيناها هادئتان ، ثابتتان ، ورموشها ثابتة ، والطرحة السوداء فوق رأسها وكتفيها وصدرها ثابتة لا تتحرك .

ارتعشت عضلة طويلة نحيلة تمتد بامتداد الفخذ النحيل الصغير . امتدت الرعشة حتى اعلى الفخذ ، حتى الزاوية المنفرجة ، كفم طفل مفتوح يلهث . شفتاه ناعمتان ورديتان يشف من تحتهما لون الدم الاحمر ، نديتان بلعاب شفّاف كدموع الاطفال ، واللسان الدقيق بدأ يرتعش ، كرعشة لسان عصفور يذبح .

رفعت عينيها السوداوين المذعورتين مرة اخرى تبحثان في العيون المتزاحمة حولها عن عيني امها . نظرت اليها بعينين غريبتين فيهما نظرة باردة كنصل

السكين . حولت عينيهـا الى السقف بعيدا عـن النصل، لكـن السكين كان يقترب منهـا رويدا رويدا، وبحركـة سريعـة خاطفة كالبرق شطرها نصفين .

لم تشعـر حميدة بالالم . عيناها ظلتا جافتين لـم تسقط منهمـا دمعة واحدة . وتركت جسدها راقدا على الارض التراب ، ومن تحت فخذيهـا شريط طويل مـن الدم ، احمر قاتم ، يلمع في الشمس ، زحف اليـه النمـل وتكاثف فوق ظهره المتجمد المقوس كظهـر ثعبان ميت . نفخت النمل فدخل التراب في انفها . عطست فاندفع مـن فمها قطعـة دموع متجمدة في حلقهـا . مدت يدهـا الى التراب وردمت النمل . اندفـن الدم واصبحت بقعـة الارض مرتفعـة بعض الشيء كالقبر . داست ببطن قدمها على الجزء البارز من المدفـن . لم تعد الارض مستوية كما كانت.داست فوقها بقدميها الاثنتين،وبكل قوتها المستعادة مشت فوقها . وعند ثنيـة الجدار اطلت برأسهـا ونظرت خلفهـا . وحينمـا لم تجـد احـدا رفعت جلبابها عـن ساقيهـا ونظرت . لم يكـن هناك العضـو المألوف وانما شـق صغير كالجرح القديم المسدود .

وصل اذنيهـا الصوت الخشن المألوف : « حميدة »،

فأسدلت بسرعـة ثوبهـا فوق ساقيها • ورفعت الجردل المملوء بالماء وسكبته فوق الشاة ، غسلت عنقهـا من الدم المتجمد ، وادخلت خراطيم الماء في بلعومهـا المقطـوع فاندفع الماء مـن فمهـا وانفهـا كالنافورة • ضحـك الاطفـال السبعـة في سعادة ، فاليوم هو العيد ،والشاة قدذبحت، والاواني والصحـون فوق المائدة أعدّت •

وحلّ موعد الغداء ، وجلس الجميع يأكلون فيمـا عدا الام ، التي كانت قد ماتت في حجرة النوم ، وحميدة التي كانت لا تزال بجوار الجردل ، تسكب الماء علـى الجسد الميت ، وتملأ كفها الصغيرة بالشامبـوه ،وتدلـك الشعر الغزير ، وتدخل اصبعها الصغير في الاذن الكبيـرة وتغسلهـا ، والعين المغمضة ترفع عنهـا الجفـن المسدل وفتحة الانف ، والفم ، والعنـق ، والشعر الاسود تحت الابطين ، واسفل البطـن •

غسلت الفخذين بعناية ، من تحت ومن فوق ، ومـن الوسط • اتسعت عيناها بالدهشة • كـان الوسط املس بغيـر عضو ، مسدودا يعلوه شق طويل كالجرح القديم •

هبطت اصابعهـا المرتجفـة الـى الساقين ، ودست

الليفـة بين الاصابع الملتصقـة وغسلت الحوافر • كانت بقايـا طيـن لا تزال عالقـة بالحوافر • طيـن اسـود تتخلله خطوط صفراء كقش التبن الذي يفرش به الزرائب•

سمعت من خارج الباب الصوت الخشن الآمر :

ـ لا تضيعي الوقت في الحوافر ، سنعطيها صدقـة للجـزار •

شدّت من فوق رف الكتب جريدة الصباح ولفت بها الحوافر • فوق الصفحة الاولى لمحت صورة مليئة بالوجوه المستديـرة ، المكتظة باللحم • تعرفت في الوسط عن وجه سيدها • كانوا يجلسون على شكل دائرة • الصحون امامهم ممتلئة مرتفعـة كأهرامات مدببة، وسكاكين لامعة ،تتهاوى في انتظام فوق الاهرامـات • وتناقصت الاهرامـات بسرعـة كبيرة حتى اختفت ولم يبق فـي الصحـون الا فتـات •

ظنت ان الاهرامات تلاشت • لكنها دققت النظر في الجريدة فوجدت الاهرامـات كمـا كانت مرتفعة وعاليـة ومدببة ، ولكنهـا اصبحت في مكـان آخر من الصورة ، في موقع آخـر بين المائدة والمقاعد ترتفع من اسفـل فوق

الفخذين وتعلو حتى المثلث المنفرج في نهاية الضلوع ، تحت القلب مباشرة •

وانزلقت اصابع حسيدة فوق القلب الاملس • ارتجفت يدها وهي تقطع الشريان العلوي وتشطر القلب بالسكين لتغسله من الداخل • كثيرا ما فعلت ذلك بقلوب الدجاج والارانب والاوز — ولكن قلب الشاة كبير الحجم ، لا يزال ساخنا،وعضلاته لا تزال تنبض بذبذبة مرتعشة خفية، تسري في اصابعها الصغيرة ، وتنتقل الرعشة الى ذراعها وصدرها وقلبها الذي اصبح يدق بسرعة اكثر •

سقطت من جوف القلب المشطور جلطة دم حمراء ، انزلقت فوق رخام الحوض، وسقطت فوق قدمها الصغيرة• انثنت ومدت يدها لترفع الجلطة عن قدمها ، لكن عينيها ارتطمتا ببطن ساقها الطويلة النحيلة ، يجري فوقها شريط طويل رفيع احمر • ظنت انه شريان تحت الجلد لكنه كان يتحرك هابطا فوق البشرة • لمسته بطرف اصبعها ، ثم قربته من عينيها • كان الاصبع مبللا بدم حقيقي •

رفعت جذعها الى فوق • فالتقت عيناها المذعورتان

بعيني امها •عينان خاليتان من الفزع ، باردتان كبركة مـــاء آسنة ، صامتان كالقبر ، ثابتتان كعينـــــي انسان ميت • اسدلت الجفنين فوق العينين الميتتين واسدلت الغطاءفـــوق الرأس والجسد • سمعت صوت امها الخافت من بعيــــد كأنمـــا يأتي مـــــن تحت الارض : « بلغت يا حميدة » • وناولتهـــا سروالا من الدمور الاسمر ، لبسته حميدة تحت الجلباب مرة ولآخر مرة ، فلم يحدث ان خلعتـــه بيديها ، وانما هما يدان اخريان ، اصابعهمـــا غليظـــــة مفلطحة ، ورائحتهمـــا غريبة يفوح منهـــا التبغ • التبغ تعرف رائحته حميدة • كانت تشتريه من الدكان لابيهـــا او اخيها او خالهـــا او عمها او اي رجل آخر من الاسرة • وحينمـــا تقربه من انفهـــا تعطس وتسعل •

وحين تسعل ينتفخ شدقاها كشدقي ابيها ، وتقلـــــد صوته الخشن ، وتقف في صحـــن الـــدار كمـــا يقف ، وتلقي برأسهـــا الى الوراء في خيلاء كمـــا يفعل ،نافخـــة شدقيهـــا ، واضعـــة يدهـــا اليمنى في خصرها •

من يراها في تلـــك اللحظة كان يظـــن انها حميدو• هـــي نفسهـــا كانت تظـــن انها حميدو• وتدبّ علــــى الارض بقدمين قويتين وتشمّر جلبابها عـــن ساقيهـــا

الرفيعتين الصلبتين ،وتجري نحو الصبيان صائحة انـــا حميدو • ويلعبون عسكر وحرامية ، او لعبة القطار ، يمسك كل واحـد منهم بذيل الآخـر ، وينطلقون يدبون علـى الارض ويصفرون •

وترتفع الصفارة في الليـل • ويرتـج جسد حميدة الصغير وهي واقفـة قرب القطار • وتتكثف الظلمـة مـن خلفهـا شان شكـل يد كبيرة تندفع بقـوة في ظهرهـا وتدفعهـا الى الامـام • وتجري حميدة في الظلام، لكن الظلمـة تنشق بعد لحظـة عن عشر عيـون صفراء تلمـع كالازرار النحاسية ، ونصل ابيض حادّ يتدلى فـي الخفاء بحذاءالساقين الطويلتين• وتلف طرحتهـا السـوداء حول رأسهـا وكتفيهـا وصدرهـا وبطنها ، وتنزلق في سـواد الليـل كقطعـة من سواد الليل • لكن الساقين بنصلهمـا الحادّ تجريـان خلفهـا ، والقـدمين الكبيرتين تدبّـان وراءها ، دبيبا لـه رنين كاصطكاك الحديـد بالحديد •

* *

حميدو كان لا يزال في الخدمة• في كعب حذائـه قطعة من الحديد تدق على الاسفلت في بطء وثقـل كحافر

بغل مصاب بضربة شمس • الشمس كانت حارقة ، فالمدينة هي القاهرة والوقت هو الظهيرة والشهر اغسطس • ورأس حميدو املس حليق بغير شعرة واحدة • القرص الملتهب الاحمر يلتصق بجلدة الرأس ، وعيناه ثقبان تنفذ منهما النار المتجمعة داخل الجمجمة ، وانفه ايضا له ثقبان يقذفان اللهب واذناه بالمثل ، وفتحة الفم ، وفتحة الشرج ، كل فتحات جسمه تغرز النار الحمراء قطعا متجمدة صغيرة وساخنة كالدم المتجلط •

حملق في القرص الاحمر الدائري • رآه قرصين اثنين احمرين ، داخل كل قرص دائرة سوداء كالنني تلمع ، وحول النني دائرة بيضاء صافية كعيون الاطفال • حملق في العينين وتعرف على اللمعة • صاح : « حميدة » ،وشد الآلة الصلبة من جوار فخذه الى فوق ، وصوبها في النقطة المحددة بالضبط ، في منتصف المسافة بين العينين • وسمع صوت ابيه الخشن : « اضغط » •وضغط على الزناد •

سقط الجسد متضرجا بالدماء ، والعينان مفتوحتان ثابتتان مرفوعتان الى السماء ، والسماء مكتظة بالآلهة وقد جلس كل منهم واضعا ساقا فوق ساق ، والساق

العلوية متدلية من بين السحب (وبذلك تكون مرئية بالعين المجـردة) تهتز بحركة افقيـة منظمة كبندول الساعـة . والشمس كانت قد غابت والليل هبط فعـزفت الموسيقـى النشيد الوطنـي احتفـالا بالنصر ، وارتفعت الاكف بالتصفيق حاملة الجسد الميت الى فوق .. لامس انف الميت بطـن قدم احد الآلهـة وشم الرائحة المألوفـة التـي تنبعث من الاقدام التـي لا يغسلهـا اصحابها . اشـاح الميت بانفه بعيدا عـن الآلة ،فارتفع الهتاف وانشق الجراب الاسود عن وسام الاستشهاد في ميدان الشرف .

مد الميت يده الملوثة ببقع سوداء (بسبب جفاف الدم) ليتسلم الوسام . امتدت بسرعـة يد اخرى نظيفـة واظافرهـا مشذبة واخذت الوسام . لوح الميت يده فـي الهـواء في غضب فامتـلأت الظلمـة بكشافات الضـوء الاصفر مستديرة وجاحظة كالازرار النحاسية .

وانفرجت شفتنا حميدو في اندهاش ، وسقط جسده الميت بين السيقان الطويلة يتدلى من بينها آلات القتـل الصلبة ، وانفرمت قدمه الحافية تحت الاحذية السميكـة ذات الرقبة . واصبحت الارض كالعجين غاصت بها قدمـه

الثانية ، وساقاه غاصتا الى الركبتين ، ثم الـــى منتصف فخذيه، حتى اعلى الفخذيـــن ، الــــى منتصف بطنه . بالتدريج كـــان يغوص الى منتصف صـــدره . والتفّت قبضة الارض حول عنقه ، فأرخى رأسه فـــوق الارض ، ووجدهـــا دافئة حانية كصدر امه ، فدفن وجهه بين ثدييها واستطاع ان يضع انفه تحت الثدي الايسر . المكان الامين القديـــم المفضل لديه . لكن امه ابعدته بيدها القويـــة كيد ابيه . ورفع رأسه الى فوق فرأى يد ابيه الكبيـــرة باصابعها الطويلة تلتف حول الوسام ، وعيناه الواسعتان السوداوان ذات الشعيرات الدموية تحملقان فيعينيه . مد حميدو يده ، لكن يده رغمالزحام ظلت ممدودة فيالهواء . حملقت العيـــون في اصابعه الملوثـــة بالدم ولم يصافحـــه أحد . (كـــان الناس في ذلك الوقت يحتقرون المقتـــــول ويحترمون القاتل) . وحميدو لم يكـــن قاتلا . هو الذي حدد النقطـــة في منتصف المسافة بين العينين وهو الـــذي ضغط على الزنـــاد وهـــو الذي قتل . لكنه قتل بغيـــــر ان يصبح قاتلا . فالقاتل هو صاحب العار الذي لم يلوث يديـــــه .

لكن العار لم يكـــن عار حميدو ، وكـــان عليـــه ان يغسله فحسب (توزيع الاختصاصات كان احدى سمـــات

التقدم ، فالبعض يقوم بالعار والبعض يقوم بعملية الغسل) • يسكب الماء من الجردل ويغسل كل شيء بعناية ، الشعر والرأس والاذرع والارجل ، وثنيات الجلد تحت الحوافر • ويسمع الصوت الآمر من الداخل يقول : « خذ الحوافر فهي نصيبك » • وتستقر الحوافر داخل جريدة من الجرائد اليومية ، وتدخل التاريخ باسم الزكاة ، يحملها حميدو تحت ابطه ، ويسير في الشارع مزهوا بها ، ومن حين الى حين ينظر تحت ابطه ، ويرى الشعر الاسود الغزير ينشق عن وجه ابيض بغير دم ، والعينان الميتتان واسعتان مرفوعتان الى السماء •

وباستطلاع غريزي حملقت عينا حميدو في السماء ، ورأى النجم الوحيد المحترق ، ذيله الطويل الرفيع يشي لامعا فوق السواد كخط من الدم الطازج الذي لم يتجمد بعد • ثم هبت نسمة جففت الدم ، واصبح النجم لونه اسود ، والسماء كتلة واحدة مصمتة بغير مسام على الاطلاق •

وهبط رأس حميدو فوق صدره ، فهبط من عينيه خيط طويل ساخن وانزلق من زاوية فمه يجري تحت لسانه بطعمه الملحي المألوف كماء المخلل •

ضغط فكه العلوي فوق السفلى وابتلع العلقم • لا مهرب لـه من الكراهية • انهـا تغزوه من جميع منافـذ جسده ، وتدخل اليه بطعمها المملح المر من شقوق جلـده وفتحات جسمه ، وتتكوم في جوفه يومـا بعد يوم ، وسنة بعـد سنة ، ويصبح جوفه كقاع زلعـة المش ، فيملأ فمـه بالدخـان الاسود ، ويطـرد الهواء من صدره ، ويبتلـع الدخـان وحـده •

عرفت حميدة رائحة الدخان •التبغ كانت تشتريه من الدكان • لكـن الرائحة هذه المرة مختلفة ، ممتزجة برائحة اخرى لا تعرفهـا • كرائحة دورة المياه بعـد ان يحلـق سيدها ذقنه • تناوله المنشفة باصابعها الصغيرة ، وتـرى عينيه في المرآة ، واسعتين تشعان من البيـاض ومـن السواد ضوءا نحاسيا اصفر •

ويستقر الضوء عليهـا ، رغم انها تختبىء وراء بـاب المطبخ •جسدها الصغير منكمش تحت جلبابهـا المبلل ، وكتفاها غير مستويتين • الكتف اليسرى اعلـى من الكتف اليمنى ، وجذعهـا يميل ناحيـة اليمين ، بسبب سلـة الخضار الثقيلة ، تشد ذراعهـا اليمنى الى أسفل ،وقدمها

اليسرى تلمس الاسفلت الملتهب باطراف الاصابع ،والقدم اليمنى تلمسه بمؤخرة كعبها الحافي . من يراها يظن انها عرجاء . لكـن حميدة لم تكـن عرجاء. كانت جائعـة فحسب . فمدت يدهـا في السلـة وتسللت اصابعهـا الصغيرة الرفيعـة تحت الخضار حتى احست ملمس اللحم الطري . شدت قطعـة ودستهـا بين اسنانهـا قبـل ان يراهـا أحـد .

اسنان حميدة صغيرة بيضاء لكنهـا حادة ، تقطـع اللحـم النيء وتهرس العظم . اسنـان بدائية نبتت فوق فكيهـا منذ قرون ، قبل ان تخترع الشوك والسكاكيـن وغيرهـا من الاجهزة الحديثة.(بسبب هذه الاجهزة فقدت اسنان سيدها قوتهـا واصيبت لثتـه بمرض البيوريا) . وعيناهـا ايضـا بدائيتان قويتان ،تريان الاشياء من علـى بعد ، واذناها قادرتـان على التقاط اي صوت مهما بعد . (اذنـا سيدهـا فقدتا ايضا هذه القدرة بسبب اكتشاف المخابرات للاجهزة السمعية الحديثة) .

وسمعت حميدة صوتا، فرفعت عينيها الىفوق. ورأت رأس سيدتهـا يطل من النافذة المزركشة في العمـارة

العالية • وبسبب الارتفاع الشاهق كان رأس سيدتها بحجم رأس الدبوس • لكـن حميدة رأته بوضوح، ولمحت العضلة السمينة المكتظة باللحم تتقلص تحـت فتحتـي الانف الواسعتين نبت فيهمـا ومن حولهـما الشعر • ادركت من اهتزاز الشعر ان سيدتها شمت رائحة اللحم المهروس تحت ضروسهـا • أنكرت بطبيعة الحال ، لكن قطعة لحم صغيرة كانت لسوء حظهـا قد انحشرت بيـن ضرسين ، شدتهـا مـن بينهما اصابع سيدتهـا البضة بالملقاط ، ووضعتهـا فوق كفهـا تحت اشعـة الشمس وارتدت نظارتها الطبيـة وفحصتهـا •

لم تضربهـا سيدتهـا هذا اليوم • حـدثت مشادة بين سيدهـا وسيدتهـا بعد الغداء الدسم ، انتهت بالاتفاق على مبدأ مساواة المرأة بالرجل في الاشراف على الخدم ، واصبح علـى سيدهـا ان يقوم بعمليـة الضرب هـذه المـرة •

رقدت حميدة علـى ارض المطبخ • سمعت وقـع القدمين الكبيرتين • اغمضت عينيها وانتظرت • احست الاصابع الطويلة ذات الاظافر المشذبة ترفع عنهـا الجلباب المبلل • تعرّت ساقاها الصغيرتان وفخذها وردفاها حتـى

منتصف الظهر والبطن • حملقت العينان الصفراوان في البطن لامعتين بضوء نحاسي • سقط الضوء الاصفر على البطن • بطن مشدود ، عضلاته تنقبض بقوة ، يهبط الى فخذين بدائيتين ، قادرتين على الحركة في اي اتجاه، وبكل قوة تقاومان وترفسان• واندفعت قدمها الصغيرة في بطنه العالي المترهل ذي الثنيات الطولية • امسك قدمها في يده الكبيرة • وادرك لاول مرة شكل قدم المرأة • فالقدم لها اصابع، خمسة اصابع ينفصل كل اصبع عن الآخر • قدم سيدتها لم يكن لها اصابع ، اذ ان اصابعها التصقت بعضها بالبعض في كتلة لحمية طرية كخف الجمل •

وزحفت يداه فوق الساقين • واحس حركة العضلات القوية تحت كفه، تنقبض وتنبسط • عضلات سيدتها لم تكن لها حركة • خامدة ، ساكتة ، تغوص فيها اصابعه بغير مقاومة كما تغوص في كيس من القطن (كان ذلك طبيعيا بسبب موت سيدتها السابق في حجرة النوم)•

بهرته حركة اللحم الحي، كخنزير يخرج فجأة من خرابة عاش فيها سنوات على الرمم واطراف الجثث • انتفض بالنشوة فسقطت عنه ملابسه ، ولامس جسده

الساخن البلاط البارد المبلل بماء المسح ، تقلصت عضلاته المرتخية المترهلة وسرى في عموده الفقري تيار كهربي • دبت الحياة في حواسه الخمس وبدأ انفه المرتعش بفتحتيه الواسعتين يختلس من تحت الحوض رائحة القمامة •جذب بكل قوته شهيقا عميقا وملأ صدره بالرائحة النتنة •سرت الرائحة في جسده وسرت معها ذكرى قديمة منذالطفولة لاول لذة جنسية •

لكن حميدة منكمشة في الركن ، ملتصقة بالجدار ، تسري فوق جسدها رعشة ، وذكرى قديمة لاول ضربة ، وعيناها السوداوان المتسعتان بالذعر ، ثابتتان فوق العصا الغليظة من الخيزران • كانت العصا مختفية تحت ملابسه او وراءظهره ، ثم في لحظة خاطفة شدها ورفعها في وجهها منتصبة صلبة • وبسرعة تفوق سرعة الضوء صوبها على النقطة المحددة في منتصف المسافة بين عينيها • وضغط على الزناد•

صرخت حميدة • دوت صرختها في الليل المظلم الساكن كصوت الطلقة •تقلبت سيدتها في كفنها الحريري من جنب الى جنب • هب بعض الناس (بسبب نومهم الخفيف فحسب) واضيئت الانوار ، وانفتحت النوافذ

المغلقـة والابواب المغلقة ، واشرأبت الاعناق وامتدّت .

لكنهـا لم تصل الى شيء . المطبخ له اربعة جدران وسقف وباب . والباب له قفل حديدي وسلسلة حديدية. وكل شـيء عاد الى ما كـان عليـه . اطفئت الانوار ، وانغلقت النوافذ والابواب .كل الاشياء انغلقت . وعـمّ السكـون ، وتجمعت الظلمة فوق بلاط المطبخ ، وتكثف في الركـن وراء الباب على شكل جسد صغير عار ، يجري من تحته خيط طويل رفيع من الدم ، وعينان واسعتـان دامعتـان تبرقـان في الظلمة كعيني طفل .

* *

اللمعة عرفهـا حميدو من على بعد ، منذ كان طفلا، تجذبه نحوهـا كضوء النجم . نجم وحيد ساهر في سماء سوداء مصمتة بغير مسام ، وحميدو يسير وحده في الظلام بكعبه فوق الاسفلت ، عينـاه مرفوعتان نحـو النجـم ، ويداه فوق صدره ملوثتان بدم قديم اسود ، وتحت الاظافر سـواد كالطين ، ومن حول الاصابع بقع بنية قاتمة بلون التبغ . يمزق سعاله الليـل ، ويشق الظلمة بصاقه الابيض ويستقر على الاسفلت بجوار قدميه ،مكورا كقطعة مـن اللحم الابيض تتخللها شعيرات رفيعـة من الدم .

اقتفوا اثره المدمم فوق الطريق وامسكوه واعادوه الى الخدمة • رفع الطبيب باطراف اصابعه النظيفة ذات الاظافر المشذبة سرواله الدمور • فاحت رائحة الجسد الميت ، فأشاح الطبيب بوجهه بعيدا عنه ، وكتب بقلمه الباركر التشخيص : « لا يصلح الا للخدمة بالبيوت » • واصبح حميدو مراسلا (اللقب القديم لخادم البيت) •

واخذوا منه العهدة : الحذاء الجلدي بالرقبة والكعب الجديد ، البدلة والكتفين المحشوتين بالقطن والقش ، والازرار النحاسية الصفراء ، خمسة ازرار فوق كل كتف ، وعشرة فوق الصدر ، والحزام الجلدي العريض ويتدلى منه الجراب يخفي النصل الحاد كالسكين •

تحسس حميدو جسده في الظلام • وجد الجلباب الواسع القديم ، يتدلى فوق فخذيه كجلاليب النساء ، وكتفاه نحيلتان وغير افقيتين ، ككفي ميزان غير معدول ، الكفف اليمنى هابطة الى اسفل تشد معها الذراع والكتف ونصف الرأس الايمن • والسبب معروف • (خدم البيوت كانوا يحملون سلة الخضار باليد اليمنى) • ولان السلة كانت دائما ثقيلة ، مملوءة حتى الحافة بالبطاطس والطماطم والخرشوف ، وفي القاع يرقد الجسد

المذبوح ، والدم الساخن الاحمر ينشع من الورق الابيض المصقول ، والقلب لا زال يرجف بحركة غير مرئية ، والعينان السوداوان الميتتان مفتوحتان مرفوعتان الى اعلى ، دامعتان ، تلمعان في الظلمة كعيني طفل .

حملق حميدو في عيني الطفل في دهشة . لم تكن لهما لمعة عيون الاطفال. كانت لمعتهما نحاسية كعيون الكبار. ركب الطفل فوق ظهره ، الركبتان فوق العنق ، والفخذان حول الظهر وكل ساق على كل جانب ، وكعب الحذاء بحذاء البطن .

هزّ الطفل ساقيه كما يفعل الاطفال حين يركبون الحمير ، سار به حميدو على يديه وركبتيه ؛ والطفل من فوقه يهتز في سعادة ، وفي يده عصا رفيعة من الخيزران. الشمس كانت في منتصف المسافة بين العينين ، والشارع اسفلت احمر ملتهب ، والحصى احمر ملتهب . حصاة حمراء دخلت في الركبة اليمنى فتوقف حميدو ليسعل وعجزت عضلات صدره عن ان تنقبض وتطرد الحصاة .

تدلّى رأسه فوق صدره كرأس الحمارة المريضة ؛ فاندفع الحذاء في بطنه مدببا كالسكين . صرخ . لكن عضلات بطنه عجزت عن ان تنقبض وتطرد الصرخة . لفّ

يديه حول بطنه ليحميه من الحذاء فانقض عليه الطفل وعضّه في بطن ساقه •

دخلت الانياب في لحمه • وصلت العظم حتى النخاع • ضغط فكه العلوي فوق السفلي وابتلع الالم • تكوّم الالم في النخاع مدببا صلبا كقطعة زلط • ضحك الطفل في سعادة وضرب قطعة الزلط ببوز حذائه • طارت الزلطة في الهواء ثم استقرت في البطن • البطن كان ساخنا والصدر ساخن ، مملوء بالدم ، والرأس حليق بغير شعرة واحدة تفصله عن قرص الشمس •

مشت النار في جسده • استسلم لها تماما وتركها تغزوه من جميع منافذ جسده ، فاتخذ وضع الحمارة المريضة وزحف على قدميه وركبته ودخلت الكراهية بطعمها الحارق من مسام جلده وتراكمت في القاع متجمدة وحمراء كقطعة الفحم المتقدة • مدّ يده ليشد آلة القتل • ارتطمت اصابعه بفخذيه الميتتين • العضلات مرتخية متهدلة تحت الجلباب • اختفى وراء باب المطبخ ورفع الجلباب • لم يجد الآلة الصلبة بحذاء الفخذ ، وارتطمت عيناه بالشق المسدود الاسود كالجرح القديم ، فسقط رأسه فوق صدره •

ورنّ الصوت الآمر ينادي . حميدة .خرجت حميدة مطرقة من وراء باب المطبخ . جلبابها المبلل يلتصق بجسدها، وعلى جدار بطنها علامة محفورة في الجلد ، على شكل حذاء . وتحت الجدار تنمو الكراهية كالجنين ، تتكور كالعجين، وتعلو يوما بعد يوم ، تنتفخ بالماء وتتخمر وتفوح الرائحة .

التقطت اجهزة الامن الرائحة . دائما هناك اجهزة للامن، لها عيون ترقب ، وانوف تشمّ . كتمت حميدة انفاسها ومسحت بطن يديها بكفيها قبل ان تمد يدها الصغيرة من بعيد بكوب الماء . التفّت اصابع سيدها ذات الاظافر المشذبة حول الكوب البلوري . واشاح بوجهه بعيدا عن الرائحة . لكن الرائحة نفاذة ، وصلت الى انف سيدتها الميت في حجرة النوم ، فانتصبت شعيراته المرتخية واصبحت صلبة مدببة كالدبابيس .

أنكرت حميدة بطبيعة الحال ، لكن جسدها كان الجريمة . اخذوا منها الجسد وتركوا لها الجريمة . كالنحل يمصّ الزهرة ، يرشف الرحيق ، ثم يلقى المصاصة بعيدا بيد قوية . اندفعت اليد في ظهرها كاللكمة . الطريق كان مظلما ، والليل اسود فحملقت في الظلمة.

تعرفت على قبضة امها في ظهرها ، فرفعت عينيهـــا الــــى عينيهـــا ، وكادت تناديها . لكـــن امها كانت واقفة بغير حراك . صدرهـــا ثابت ، ورأسها ثابت ، وعيناها ثابتتان ورموشهـــا ثابتة .

سارت حميدة بجوار التمثال الحجري وتركته خلف ظهرها . . دبّ الصمت في الليـــل وادركت انها وحيدة. جلست على دكـــة حجرية بجوار النيل . ملأت صدرهـــــا بهواء النيل . هواء راكد حزين . دخل الحزن صدرهـــــا مع الظلمة، فادركت انها ولدت بغير ام ، وان جـــدتهـــا لابيهـــا كانت جاريـــة في بلاط سيدهـــا ، وانهـــا ماتت مقتولـــة بسكين ابيهـــا .

تركت جسدها فوق الدكة مرتخيا ، مفتوح المسام ، يغزوه الحزن من جميع المنافذ . ملأهـــا الحزن حتى الثمالة، واعطاها قوة . والحزن لا يعطي دائما . انه نادرا مـــــــا يعطـــي . يختص بعطائه نوعا نادرا مـــن الناس ، قـــادرا على مبادلته العطاء ، وحميدة قادرة على ان تعطي الحــــزن نفسها كاملـــة . تنفرغ له وتعيش عليه . تأكله وتشربـــه وتهضمه وتجري عصارته في دمهـــــا ، وتفرزه امعاؤهـــا ، وتفرزه مسام جسدها ، ويسيل فـــوق جلدهـــا كخيـــوط

رقراقة ، تلعقها بلسانها وانفها وتبتلعه مرة اخرى في جوفها ، وتهضمه ثم تعود تفرزه •

من يراها واقفة منتصبة في الليل وحدها يظن انها تمثال رمسيس • ذيل الماء يمشي فوق خديه وعنقه وكتفيه وفخذيه وقدميه • يمشي بهوادة ، دون ان يشعر بحركته ، ويظل هناك فوق الجلد ، ورغم نسمة الليل الجافة لا يتبخر، بل يدخل مسام الجلد ،ويعود من حيث اتى الى منبعه الاصلي في رحم الام •

الحزن هو ولا شيء غيره • الجنين الابدي في رحمها تعيش له ويعيش لها • يدخل او يخرج حيثما تشاء له ان يدخل او يخرج • وحينما تريد له الخروج يصبح طفلها • طفل طبيعي ليس كالاطفال الصناعيين الذين يولدون بشهادة مكتوبة بالحبر ويجري الحبر الاسود حيث الدم الاحمر ، واعضاؤهم التناسلية تبتر والشعر يجتث من فوق الرأس ، وبحذاء كل فخذ لعبة اطفال على شكل مسدس •

طفلها لم يعرف اللعب بالمسدسات او العرائس او اي لعب اخرى ، فاللعب للاطفال وهو ليس طفلا • يولد واقفا على قدميه ، ويجري بين اكوام السباخ ويضحك وحده •

هذه الضحكـة هي التي تميّزه عن الاطفال . فهي ضحكة بغير صوت ، بغير حركة في عضلات الوجه ، لكن عينيه الصغيرتين تكسوهمـا دمعـة كاللمعة ، تشعّ من تحتهـا نقطـة ضوء ،كنجم وحيد ساهر في سماء بغير قمر .

سارت حميدة في الليـل تبحث عـن طفلها . دارت حول اكوام السباخ . نظرت خلف صفائح القمامة . رأت بجوار الجدار جسدا صغيرا متكورا حول نفسه . عرفته على الفور . مدّت ذراعيهـا في الظلام لتحوطه بصدرها. شقّ الظلمـة ضوء اصفـر وظهرت العيـن النحاسية . دائما هناك عين مستديرة ترقب بغيـر جفين كعين الثعبان ، والذيل طويل ناعم. لم تخدعها النعومـة ونظرت خلف الذيل . رأت آلة القتل مختفيـةتتدلى بحـذاء الفخذ . لم يكـن ثعبانا . كان حيـة انثى . لكـن حميدة كانت تدرك ان اي شيء يقتل لا بد ان يكون مذكرا ، فصرخت لطفلها : « احترس منه ، سيقتلك ! » .

دخلت الانياب في بطـن الساق الصغيرة الرفيعـة. سـال الدم كذيل طويل رفيع . بلل اصابعها الصغيرة ، وهبط الى بطـن قدمها . رفعت رأسها الى فوق ، ورأت عيني امهـا الواسعتين السوداوين ثابتتين فـي عينيها ،

تنظران اليهـا في صمت، والطرحـة السوداء تغطـي رأسها وصدرهـا وبطنها • فتحت فمها لتسأل ، لكن الكف الكبيـرة اصبحت فوق فمها ، والانفاس والهواء وحفيف الشجـر كلهـا اصبحت بغير صوت ، تجمدت في كتلة سوداء صماء بغير مسام ، والطرحـة السوداء ذابت فـي الليـل كمـا تذوب قطرة الماء في البحر ••

لكن الساقين تدبان من خلفهـا ، طـويلتين شاهقتين كالموجة العالية ، تتبعهـا في الخضم ، ترصـد مكانـها ، تغوص معهـا الى القاع ، وتطفـو كالجثث فوق السطح، وتتـوه معهـا في وسط البحر ، ثم تعـود تظهـر عنـد الشط ، وترتطم معهـا فوق حافة الصخر ؛ وتضيع فـي الزبد الابيض ، تتأرجح معها بين المدّ والجزر •

المد كـان ضعيفا والجزر أضعف • فالبحر لم يكـن بحرا ، وانمـا نهـر النيل ومياهه راكدة في القاع ،حركتها بطيئة ، ثقيله ، كقدم نصف مشلولة ، تدوس فـوق الارض وتثبت ولا ترتفع مرة اخرى لكـن حميدو يشدهـا بكل قوته ، بكـل عضلات الساق الرفيعـة المعوجـة ، وترتفـع القدم فوق الارض وتثبت ، ولا تهبط مرةاخرى، لكـن الارض تشدهـا بكل قوتهـا فتسقـط فوقهـا ثقيلـة كقدم من حجر •

الصباح كان مبكرا والشمس لا تزال مائلة ، فارتسم ظله فوق الارض . طويل ورفيع معوج . كقوس قـزح . الرأس حليق ، والكتفان غير مستويتين ، كتف اعلـى من كتف ، وساق اطول من ساق ، كالاعرج ، والاطفال مـن خلفه يضحكون ، ويركبون فوق ظهره .

اصوات الاطفال وصراخهم يترامى اليه من فـوق رأسه ،واقدامهم تدبّ فوق ظهره كعجلات القطار ، كـل واحد يمسك بذيل الاخر ، ويصفرون ، وترتفع الصفارة في الجو فيجري كل منهم ليختفي من « المساكة » وراء كـوم سباخ او في الزريبة او خلف عمود النور .

عمود النور كان طويلا ممتدا في السماء ورأسه يلتصق بالقمر . القمر كان نوره ابيض ، سقط على وجه حميـدة وهي مختفية وراء العمود ، فأصبح وجهها ابيض ،وذراعاها بيضاوين ، وساقاها بيضاوين ، وجسدهـا ابيض املس منزوع الشعر . لكن منابت الشعر ظلت بارزة في قشعريرة، سرت فوق جلدهـا .

امتدّت يدهـا البيضاء ولمست جلدها . جسدهـا وحده هو الذي يطمئنهـا . كل الاشياء الاخرى خـارج جسدهـا غير مطمئنة . اجسام غريبة تكمن في الاركان ،

ووراء الجدران وخلف الابواب ،وفـي ثنيـات الشوارع المظلمة ، وفي زوايـا كل شيء • الزوايـا من الخارج تبدو ملسـاء بريئة ، كأنما لا شيء داخلها ، ولكن حينما ينفرج الضلعـان وتتباعـد الساقان تظهـر آلـة القتل بوضوح صلبـة ومنتصبة •

تصرخ حميدة • صرختها غريبة ، ليس لهـا صوت الصرخة المألوف حين يصرخ الانسان فزعا او طلبا للاستغاثة• فلم تكـن حميدة تستغيث بأحد • كانت تعرف ان الطريق خال ليس فيه احد ، والنوافذ مغلقة والابواب مغلقـة والانوار مطفأة والاصوات معدومة ، وكل شـيء معدوم كالصـوت •

لم تكـن صرخة استغاثة ، ولكنها حادة وطويلـة وممتدة ، كأنهـا ملاييـن الصرخات اتصلت والتحمت في صرخـة واحدة تمتد بامتداد الليـل ، وتتلحـم بملاييـن الذرات السوداء التـي تصنع الظلمة والصمت •

ولم تكـن ايضا صرخـة فزع او خوف • لم تكـن حميدة تخاف الظلمـة او الصمت او حتى الموت • فهي جزء من الظلمـة ، وصوتهـا هو الصمت ، اما الموت فهو يعيش معهـا • تحمله كالجسد الثاني على جسدهـا • كشخص

آخر ميت يعيش داخلها • يحتل الفراغ في جوفها ويفرد ذراعيه وساقيه ويتمدد ، وتفوح رائحته من عينيها واذنيها وانفها وفمها وجميع فتحات جسمها • وفي الليل حين تشتد الظلمة وتشتد الوحدة تمتد يدها فتحسه الى جوارها ، ملاصقا لها ، وفي حضنها انفاسه تختلط بانفاسها وحرارته كحرارة جسمها •

وضعت حميدة يدها على ظهرها فشعرت بالامان • جسدها ساخن ناعم املس الزوايا • من يراها من الخلف يظن انها طفل • وحين تستدير ويرى عينيها يدرك انها عجوز ووجوه العجائز كوجوه الاطفال ليس لها جنس • وحين تهبط العين الى بطنها النامي بالجنين الحي يعرف انها امرأة • ويحتار المرء في تحديد عمرها ، فالحقيقة ان حميدة ليس لها عمر • وهذا هو حال الاطفال الذين يولدون رغم انف الموظف الحكومي الذي يحدد تاريخ الولادة • وانهم يعيشون فوق مستوى الحكومة ، وفوق مستوى التاريخ ، وفوق مستوى الزمان والمكان ،لا ينتقلون كالبشر العاديين من مرحلة الطفولة الى الشباب الى الشيخوخة ، ويعيشون رغم انف الموظف الحكومي الذي يحرر تواريخ الوفاة • ينجون من الزمن كالآلهة،

ويعيشون الى الابد ، حياة واحدة ممتدة بغير مراحل .

يولدون كبارا ثم يصبحون عجائزبغير مرحلة طفولـة او شباب . ثم يرتدون فجأة من الشيخوخة الى الطفولـة او من الطفولة الى الشباب . يرتدون في لحظة سريعـة خاطفـة اسرع من قدرة العين على الرؤيـة ، فاذا بالعين عاجزة عـن اكتشاف حقيقتهم ، ويبدو الواحد منهم طفلا وشابـا وعجوزا في اللحظـة نفسها والمكـان نفسه . واحيانا يسيرون في الطرقات وهم موتى وتكـاد تزكـم رائحتهم الانوف ، ومع ذلك تظل العين عاجزة عن التفرقة بينهم وبين الاحياء .

التجاعيد في تلـك الاحوال لا تهمّ كثيرا ،لانهـا لا تبدو للعين تجاعيد وانمـا تلـك الخطوط الطبيعية التـي تظهـر على وجه الطفل حين يضحك بشدة وبغير صـوت مسمـوع .

حميدة كانت لا تزال وراء عمود النور ، وجههـا متورم مستدير تحت الضوء ، ابيض بلون الدقيق ، تخفي تحت المسحوق التجاعيـد ، وشفتاهـا المشققتان (بسبب الجوع) تغطيهـما قشرة حمراء مدممة ،وصدرها بارز من فتحـة ثوب مقطوع ، وبطنهـا بارز ، وكعباهـا المشققان

بارزان من حذاء كالشبشب بغير كعب ، وشعرها غزير اسود كقطعة من الليل يغطي بالسواد رأسها وصدرها وكل جسدها ، ويطل من تحته عنقها الابيض كجذع شجرة تخرج من غابة نبتت جذورها في ارض رطبة .

من يراها يظن أنها امرأة ليل ، مع انها لم تكن امرأة ولم يكن الوقت ليلا . كانت الشمس رأسية في منتصف المسافة بين العينين ، وحميدة تحملق في القرص الملتهب الاحمر ،لا يطرف لها جفن ، ولا تختلج في وجهها عضلة . تنظر اليه بكل قدرتها على الصبر . وتراه بوضوح في مركز الدائرة كالقوس ، طويل ورفيع ومعوج ، يتحرك امام عينيها بحركته البطيئة ، كتف اعلى من كتف، وساق اطول من ساق ، كالاعرج . عرفته على الفور وكادت تهتف حميدو . لكنها خشيت ان يكتشف مكانها وراء العمود ، ويتعرف على بطنها المنتفخ، ويشد آلة القتل .

أطبقت شفتيها وكتمت انفاسها . لكنه شم رائحتها (رائحة حميدة قوية نفاذة كرائحة الموتى) فتوقف عن المسير ، ومد يده الطويلة الرفيعة خلف عمود النور . لم

تمسك يـده شيئا . ناداها بصوت مألوف غير مسمـوع مقلدا صوتها :« حميدة » ، وثنى جذعه فالتـوى نصفـه الاعلى فوق الاسفل مقلدا شكل جسدها . كـان التقليد مصنوعـا باتقان شديد (بسبب تقـدم الصناعـــة والتكنولوجيا) الى درجـة ان حميـدة اختلط عليهـــا الامر ، وظنت ان الصوت صوتهـــا ، والجسد جسدها ، فخرجت من وراء العمود مطمئنة ، وسارت كعادتها مطرقة رأسهـا ، وحينمـا رفعت رأسها الى فوق ارتطمت عيناها بالعينيـن الصفراوين ، فرأتهـا من هول المفاجأة أربـع عيـون ، وتضاعف العدد في لحظة خاطفة ، وحوطتهـــا العيون الصفراء ، عشرا فوق الصدر من الامـام مستديرة ومتراصة في وضع رأسي ،وفوق كل كتف خمس في وضع افقي ، تشـع كـل عين ضوءا نحاسيا اصفر .

ورن الصوت المعدنيفوق الاسفلت كاصطكاكالحديد بالحديد . ما اسمك ؟

قالت بصوت غير مسموع : حميدة .

مشت الموسى الحادة فوق جلدة رأسها وسقط شعرها الناعم الغزير في الجردل ، وهبطت الموسى الحادة الـى جسدها ، ومشت فـوق جلدهـا تجتث الشعر ، وحينما

وصلت الى اسفل البطن عثرت بين الشعر الاسود على البرعم الصغير الابيض،كالعصفور الوليد ، فاجتثته من جذوره ، وتركت مكانه جرحا عميقا في اللحم كالشق المسدود .
(سميت هذه العملية الجراحية « بالطهارة » في ذلك الوقت وكان هدفها ان يصبح الانسان « طاهرا » بغير اعضاء جنسية) .

رقدت حميدة فوق الارض الاسمنت ، تحوطها اربعة جدران من الاسمنت ، وذراعاها وساقاها مشدودة مربوطة في حزمة واحدة، واحزام من المعدن الصلب ،يتدلى قفله الحديدي من بين فخذيها (دخل التاريخ باسم حزام العفة) ، وتصطك سلسلته بالارض الاسمنت كلما حركت ساقيها او ذراعيها .

جسدها الناعم الصغير من تحته بركة من الدم ، تدخل في شقوق الارض ، وفوق الجدران دم على شكل اصابع آدمية ، دم اسود قديم ، كالبقع ،ملايين البقع، من كل عمر ومن كل جنس ، اطفال ورجال ونساء وعجائز بيض وسود وصفر وحمر ولكل واحد بقعة مميزة كبصمة اليد .

وضعت حميدة طرف اصبعها الصغير في الشق :فخرج

مبللا بالدم ، مسحته في الجدار، وطبعت فـوق الاسمنت بصمتها كالختم • (الأميون جميعا امثـال حميدة يختمون على الوثائق الرسمية بهذا الشكل) • وتمتـد الاصـابع السوداء الملوثة بالدم تطبع ختمهـا فوق الوثائق • ملايين الوثائق ومن فوقهـا ملاييـن الاختام ، أختام سـوداء خطوطهـا متعرجة مشرشرة كارجل الصراصير، او الذباب او الجراد • كثيرون ومنتشرون فوق الارض ،بالليـل وبالنهار ، فوق الكباري ، فوق السواري ، عنـد ثنية كل شارع ، وراء كل بيت ، خلف كل جدار ، داخل كل شق من شقوق الارض ، رؤوسهم العارية الحليقة تطل فوقالسطح، واجسامهم النحيلة مقوسة داخل الشق وبطونهم مجوفـة خالية من الاحشاء الداخلية ، بغير كبد وبغير قلب وبغيـر معدة ، وبغير مصارين والجوف الواسع الخـاوي اصبـح مخزنـا سريـا يعبئون فيه الكراهية (المكـان الوحيـد الذي لا تصل اليه اجهزة الامن في ذلـك الوقت • تقدمت الاجهزة العسكريـة حديثا واخترع في الطب جهاز للاشعة يكشف عن الاجسام الغريبة في جسم الانسان ، ومنظـار الكتروني يوضع في فتحة الشرج ويكشف عـن محتويات التجويف الداخلي) •

سقطت اشعه اكس فوق بطنها المنتفخ • ظهرالتجويف ممنوع حتى الحافــة بالكراهية ،طبقــة فوق طبقة ، فوق طبقة ، ملايين الطبقات الرقيقــة كرقائق من معدن شفاف ، تكونت بعضها فوق بعض في كتلة معدنية مصمتة وصلبة، تحسسها الطبيب باصابعه الناعمة المشذبة الاظافر ثم صرخ: بــارود • فانهالت المعاول تشق الارض وقلبوا الشقوق رأسا على عقب ، وعثروا على خزائن البارود جميعا (اشاد التاريخ بالانتصار الذي حققته اشعة اكس في عـــــلاج الاورام السرطانية من الجسم) •

لكن السرطان مرض خبيث ، أخبث مــن التاريــخ ، والورم ظل ينمو داخل بطن الارض ، وحينمــا تضع حميدة يدهــا تحتهــا تحسه ساخنا فوق كفها، سخونــة جسمها وتشعــر بالطمأنينة فتقرب اصابعها من انفها ، وتشم الرائحة المألوفة ، كرائحة كوم السباخ ، او صفيحة القمامــة ، او قطعة اللحم الميتة ، تشمها بفتحتي أنفهــا وتملأ بها صدرها، فهــي رائحة حياتهــا •

حرك حميدو رأسه ناحيتهــا • جذبته الرائحـــة المشتركة • كان من الممكــن ان يبتعد ويهرب ولكنه اتجه نحوهــا بحكم المصير المشترك • توقف عند الجثة الميتــة

فاردا قامته الطويلـة راسما ظله على الاسفلت ، طويـلا ورفيعا ومعوجا ، وبحذاء الفخذ يتدلـى النصـل الابيض وعليه بقع سوداء كالدم ــ فتح صدره وملأه بهواء الليـل، ادرك انه ولد بغير ام ، وان جده لابيـه كان جنديا فـي جيش محمد علي ، وانه قتل في السجن •

عرف فجأة ان السجن مصيره ، وكأنه حقيقة قديمـة يعرفهـا كالموت ، فلم يقاوم • ترك جسده مرتخيا في قبضة اليد الحديدية • تدرب في سنوات الاسر ان ارتخاء الجسد يضعف التوتر • مسام الجلد متمدد وتتفتح ويخرج مـن عينيه واذنيه وانفه وفتحة الشرج • ويصبح كل شيء اقـل ضراوة • الضرب اقل ضراوة ، والنفخ اقل ضراوة والكي بالنار (قبل اكتشاف الكهرباء) اقل ضراوة •

ويسقط جسده مرتخيا فوق الارض ، يتمدد بكـل قدرته على التمدد ، وتجري من تحته ذيول رفيعة من الدم، تدخل شقوق الارض وفوق الجدران بقع سوداء كالدم ، كل بقعـة على شكـل خمسة اصابع وكف• ملاييـن البقـع ، من كل عمر ومن كل جنس • اطفال ورجال ونساء وعجائز بيض وسود وصفر وحمر • ولكل واحـد بقعـة مميـزة خاصـة بـه •

نهض حميدو يستند على الجدار ،وطبع بصمته فوق الاسمنـــت كالختم (المحكوم عليهم جميعا امثال حميـــدو يختمون على محاضر البوليس بهذا الشكل) وتمتد الاصابع السوداء الملوثة بالدم تطبع ختمها فوق المحاضر • ملاييـــن المحاضر بعضهـــا فوق البعض ، متكدسة كأجساد الموتـــى في يوم الحشر (قبل اكتشاف الاتوبيس) اجساد مرصوصة في خطوط افقية مصفوفة في وضع عكسي ، الرأس بجوار المؤخـــرة ، والمؤخرة بجوار الرأس ، متراصة في كل شبر من الارض او السقف ، متلاصقة بغير مسافات ولامساحات خاليـــة تسمح بمرور الهواء او امتداد الساق او الذراع •

اغمض حميدو عينيه وفتح فمه وتأوه• تبعه الاخرون بصوت مماثل • ارتفعت ملايين الاصوات في الفضـــــاء المظلم وصنعت صمت الليل • ضغط الصمت بكثافته وثقله على أذنيه ففتح عينيه ورأى في وجهه القدمين المشققتين • عرفهما على الفور وهمس بصوت مقلد صوتها : حميـــدة • لكنها لم ترد ، كانت ميتة ، جسدها ممدود فـــوق الارض ، ووجهها ناحية السماء ، يسقط عليه ضوء القمر الابيض ، فيبدو مستديرا متورما كالمثانة المنتفخة •

فتحت فمها وتأوهت (بسبب ضغط البول) • ارتفعت

ملايين التأوهـــات في الفجر وصنعت النشيج الوطني ‏•
(كانوا يسمونه النشيد الوطني) ‏•

سمع حميدو النشيد فأدرك ان النهــار طلع ‏• جرّ ساقيه من تحت الحزام الحديدي وسار الى دورة المياه ‏• المكان الوحيد من العالم حيث يشعر بالتفاؤل ، ويتبــادل من وراء الحائط بضع كلمات ، وينبعث من نصفه الاسفل خيط البول ، رفيعا ومقوسا كقامته ، ونفــاذ الرائحــة كرائحته ، فيشعر بمرح مفاجىء ، ويرمق من حوله خيوط الماء الصفر تلمع في الضوء كأقواس النصر فيضحك مقهقها ‏•

ترتفع القهقهات من دورة الميـــاه ، قهقهات عالية ، ملاييــن القهقهات، فالاعداد تتزايد يوما بعد يوم ، وكــل الاجهزة يمكن أن تتعطل فـــي ذلك الوقت الا الاجهزة التناسلية والاجهزة اللاسلكية بطبيعة الحال ‏•

ويسري الصوت كما يسري أي صوت وبالسرعــة نفسها (عن طريق أحد الاجهزة) ، ويدخل الاذنين الكبيرتين كالحصاة المدببة ، ويرتفع الاصبـــع النظيف ذو الظفــر المشذب ويسلك الاذنيــن ، وتسقط الحصاة المدببة فـــي كفه السمينة المكتظة باللحم ، فيرفع عينيه في عيني الموظف المختص ويقول : أيضحكون ؟‏••

ويخفض الموظف عينيه كعادة الموظفين في حضرة سيده : لا يا مولاي ، يبولون فحسب .

حميدو كان لا يزال واقفا في دورة المياه ، وخيط الماء لم ينقطع بعد ، حين رأى الموظف مقبلا يفتش ، شعر بالخوف . والخوف كالموت كائن عضوي من لحم ودم ، سحب الدم من رأسه وذراعيه وساقيه وأحشائه الداخلية ، وتجمع في نقطة واحدة أسفل البطن ، انتفخت وتمددت كالمثانة . وكان الموظف لا زال واقفا أمامه ، فاتحا ساقيه في غطرسة ، شاخصا في عينيه بشجاعة الموظفين في غيبة سيده ، وفمه مفتوح ، ولثته متقرحة مصابة بالبيوريا (كلثة سيده) .

وشعر بألم حاد أسفل بطنه . وتلفت حوله . كانوا يضيقون الخناق عليه ، والاجساد تضغط عليه من كل جانب ، بغير مسافة أو مساحة خالية . ولم يجد مكانا خاليا سوى الفم المفتوح المتقرح ، فصوّب نحوه شريط الماء ، وأفرغ الخوف كله من جسده .

فتح حميدو عينيه ، وأحسّ من تحته البركة ، دافئة كجسده ، نفاذة الرائحة كحياته . أدرك انه لا زال حيا ،

وتفتحت شهيته للاكـــل . مدّ يده في الصحن فانتفضت ملايين الحشرات السوداء الصغيرة وهاجت من حوله في مرح ، بعضها يطير ، وبعضها يجري ، وبعضهـا يزحف . التصق بعضها بالسقف ووقف عـلى الجدران ، ودخـل آخرون الشقوق وبقيت واحدة في كفه .

نظر بين ساقيها ورأى الجرح القديم المسدود فأدرك انها أنثى ، وانها ميتة . ضغط عليها بالكف الاخرى فماتت مرة أخرى . طرقع أصابعها الميتة فالتقط جهاز التسجيـل صوت الطرقعة . (كان هناك جهـــاز للتسجيل من آخر طراز بحجم الحمصة ثبت في عضو من جسمه) . طرقـع أصابع قدمه اليمنى بكبرياء وزهو . حركته في التاريخ لها أهمية . والاهمية هي سبب ذلك الذعر الـــذي يراه في عيون موظفي الدولـــة ، حين تصوّب نحوهم العدسات المفتوحة ، فاذا بأي حركة تصدر عنهم تدخل التاريخ على الفور ، وان كانت مجرد طرقعـــة اصبع (بسبب تيبس المفاصل بعد الاربعين) ، أو اصبع يرتفـــع ليهش ذبابة وقفت على الانف .

هزّ أصابع قدمه بحركة مبتكرة . انه رغم كل شيء يحب الاصالة ويكره التقليد . كم سجل التاريخ ركاما من

الحركات المقلدة غير الاصلية كحركات القرود ، ووجوه وأصابع متشابهة مكررة كلها تقليد في تقليد . ركام مكدس بعضه فوق البعض ككوم السباخ . كل يوم ترقد البقرة ، وفي الفجر تدخل أمه تلم الروث ، ثم تجمعه تحت الشمس بعضه فوق البعض ، وحين يجف في اليوم التالي يصبح راسخا في التاريخ .

ظهر العسل الاسود متجمدا في قاع الصحن ، واستقر في قاع معدته كقطعة من القطران . قضم قطعة بصل وأصلح بها طعم العلقم . أشعل قطعة تبغ وملأ بالدخان صدره وبطنه فشعر بما يشبه الشبع ، وتجشأ بصوت عال ينم عن الثقة بالنفس . (الذكور فقط هم الذين كان يحدث لهم ذلك) .

سمعت حميدة الصوت . تعرفت فيه على رائحة التبغ . كانت تشتريه من الدكان لابيها أو أخيها أو خالها أو عمها أو أي رجل من الاسرة . ويناولها البائع قطعة حلوى ، تضعها في فمها ، وتخفيها تحت لسانها ، وحين يطالبها بالقرش تفتح يدها فلا تجد شيئا ، وتفتح عينيها فتجد المصباح كذؤابة الضوء ، تحتضر ثم تموت بنفخة

هواء واحـدة . وتسد الظلمـــة الباب كالجسد الطويل الضخم الا من ثقبين مستديرين في أعلى الرأس ينفذ منهما ضوء أحمر بلون الشفق .

همست بصوت خائف غير مسموع : « من أنت ؟ » .
رد بصوت كصوتها خائف وغير مسموع : « حميدو » .
أغمضت عينيها حتى لا يتعرف عليهمـــا ، تركت ذراعيـه الطويلتين تحوطانها ، وانفاسـه الساخنة تدفئهـا . كـان الفصل شتاء وأذناها الصغيرتان الناعمتان كقطعتين مـن الثلــج .

همس في أذنيها بنفســه الساخن : من أنت ؟ تركت أذنها تحت فمه ولم ترد . تظاهرت بالنوم وخبأت رأسهـا في شعر صدره الغزير . وحينما أحست الاصابع الكبيرة ترفع عنها الثوب كتمت أنفاسها ، ولم يعد صدرها يعــلو أو يهبط ، وأصبحت ميتة .

لكن الشمس في الصباح سقطت فوق عينيها . ورأت الجسد الطويل الى جوارها ، طويـلا ورفيعـا ومعوجا . كتفاه غير مستويتين تشبهان كتفيها ، وأصابع يديه متورمة متقرحة من ماء الغسل كأصابع يديهـــا ، وأظافره سوداء

كأظافرها . عرفت على الفور انه جسدها فاحتضنته بكل قوتها ، وضغطت صدرها على صدره ، فأحست المحفظة الجلدية تحت ثديها الايسر . كانت جائعة فمدت يديها وسحبت المحفظة بسرعة قبل أن يراها أحد .

اختبأت وراء جدار وفتحت المحفظة . رأت صورتها بالطرحة السوداء تشبه أمها ليلة زفافها ، ووصية بخط أبيها يذكره بغسل العار ، وأربعة جنيهات وبريزة (البريزة هي العشرة قروش في ذلك الوقت) .

أكلت بالبريزة ، واشترت بجنيهين ميني فستان (وهو الفستان المصغر الذي كان شائعا في ذلك الوقت بين الزوجات المحصنات حتى لا يظهر من أجسادهن المحرمة الا الاذرع والاكتف والصدور والافخاذ فحسب) . واشترت بالجنيهين الباقيين حذاء له كعب عال رفيع وليس له وجه . (اختفاء وجوه الاحذية في ذلك الوقت كان هدفه الكشف عن طلاء الاصابع الاحمر بلون الدم ، أما الكعب فكان موجودا ليخفي تشقق أقدام النساء بسبب الخدمة بالبيوت) .

وسارت حميدة في الشارع تتأرجح على الكعب

العالي ، وذراعاها عاريتان ، وفخذاها عاريتان ، وعنقها عار حتى منتصف ثدييها . أصبحت تشبـــه سيدتها ، ومرت بحذاء الشاويش (الاسم الشائع للشرطي في ذلك الوقت) فلم يقبض عليها،وتركها تمر امامه مطرقا رأسه وخافضـا عينيه ناحية الارض (كان اسم هذه الحركة « غض البصر » أمام المحصنات من النساء ، وقد تدرب عليهـا في سنوات الدراســة) .

رفعت رأسها الى فوق ، وسارت بخطوات متأرجحة مهتزة . اهتزت كتفاها العاريتان وظهرت الكتف اليسرى أعلى من الكتف اليمنى . والثدي الايسر أعلى من الثدي الايمن (كان ذلك بسبب المحفظة المنتفخة المختفيـة تحت الثدي الايسر) . واهتز الردفان أيضا ، واحدهمـا أعلى من الآخر .

ابتعدت عن الشرطي بضع خطوات وتحسست المحفظة. جلدها ناعم كاللعاب يجري فوق أصابع اليد بعد قضمـه فطيرا بالسكر ، وتيار من الدم الساخن يسري من ثديهـا الايسر الى بطنها وفخذيها وقدميها ، ثم يصعد الى رأسها وأذنيها وأنفها ، ويهبط مرة أخرى الى قلبها ، في دورتـه

العادية المتكررة ، باعثا في الخلايا الساكنة حركة جديدة لها لذة •

حركت فكها العلوي فوق السفلي ومضغت اللذة • ذابت اللذة في اللعاب فابتلعتهما • اختلطت اللذة بالدم ودارت معه من الرأس الى القدمين ومن القدمين الى الرأس • وبدأ رأسها يدور ، فأسندت ظهرها الى عمود نور ، وأسدلت جفنيها فوق عينيها ، فأصبح الشارع مظلما، والسماء سوداء بغير قمر • سقط الضوء المستدير الازرق فوق وجهها • عرفته على الفور (كان سيدها يطلي فوانيس عربته بطلاء أزرق حتى لا يراه أحد أثناء جولاته الليلية) • فتح بابه وهبط من العربة ، ثم استدار حولها وفتح لها الباب • انتظر حتى دخلت وجلست ، فأغلق الباب ، ثم استدار مرة أخرى حول العربة حتى وصل الى بابه ، ففتحه ثم جلس وأغلق الباب • (كان سيدها قد تدرب على هذه الحركة الدائرية في كلية الآداب) •

انغرز كعبها العالي الرفيع في بساط سميك طري كالعجين فانخلع حذاؤها • وظهر كعباها المشققان فأخفتهما تحت الملاءة الحريرية • كان جسدها قد أصبح في وضع

أفقي فوق شيء طري ، اكثر طراوة من العجين ، فارتخى ردفاها المشدودا العضلات (بسبب طول الوقوف وراء العمود) ، وبدأ جسدها يغوص في العجين ، القدمان ، ثم الساقان ، ثم الفخذان ، ثم الصدر فالعنق . ولم يبق الا الرأس بارزا فوق السطح .

بدأ الرأس يغوص بالتدريج ، الذقن ، ثم الفم ، ثم الانف . انعدم الهواء ، فاتسعت عيناها السوداوان وملأهما الرعب . والرعب كائن عضوي من لحم ودم ، تجسد أمامها على شكل مخلوق غريب مشوه . رأسه انسان وجسده قرد . رأسه عار حليق أملس ، وصدره غابة شعر واليتاه كرأسه عاريتان ملساوان تشف بشرتهماعن لون الدم الاحمر كبشرة وجهه ، وشفتاه حمراوان ، منفرجتان ، يظهر بينهما لسانه الطويل الحاد كنصل أبيض له حافة معدنية صلبة ، وفي نهايته ثقب مظلم يكمن فيه الموت .

صرخت صرختها المكتومة غير المسموعة ، وأسدلت جفنيها فوق الرعب زحف الرعب الى حلقها (خلال القناة الدمعية التي تصل العين بالانف) وتكوّر كالغصة . شدت عضلات حلقها وبصقته بكل قوتها فانبعثت من فمها وأنفها وأذنيها خيوط رفيعة كالنافورة .

ضحك سيدها في سعادة الاطفال ، فقفز خده الممتلىء باللحم وسدّ عينيه تماما • أدركت انه سينام بعد لحظة • (كان السلام الملكي قد دق معلنا انتهاء الحفل الترفيهي) • وحينما ارتفع شخيره في الفضاء فتحت الازرار الذهبيــة فوق صدره ورفعت المحفظة الجلدية الثقيلة الضاغطة على قلبـــه •

فتحت الباب بهدوء ، وسارت عـــلى مهل بخطوات واثقة • فتحت باب سيارتها بمفتاح فضي لامـــع كمفتاح سيدتها • انزلقت العربة فوق الاسفلت الناعم كقارب رشيق يسبح • مرت بحذاء الشرطي الواقف على الرصيف منتصبا كعمود النـــور ، فاهتز (كأنما بمس كهربي) وارتفعت سبابة يده اليمنى ولامست طرف أذنـــه اليسرى (حركة مقدسة في ذلك الوقت ترمز الى حب الوطن) •

أطلت من نافذة السيارة برأسها • سقط ضوء القمر على وجهها • كان الطريق خاليا الا من أعمـــدة النور ، منتصبة على جانبي الطريق في وضع رأسي ، ومن ناحية اليمين ترتفع الاذرع عاليا ، ومن ناحيــة اليسار رشق في كـــل اذن اصبعــا •

تعرفت على البقع السوداء فوق الاصبع ، فهمست بصوتها الخافت : حميدو ! لم يسمع حميدو شيئا ، وظل واقفا منتصبا ، رأسه مرفوع نحو السماء ، واصبعه الاسود في أذنه (جميع المسافرين الى الخارج كانوا يرون في مدخل كل بلد هذا النصب التذكاري للجندي المجهول) •

مدت يدها وأمسكت يده • أصابعه كأصابعها والخطوط فوق كفه تشبه خطوطها • أشفقت عليه بحكم المصير المشترك ، وحاولت أن تثني ذراعه المرفوعة في اعياء • لكن الذراع الحجرية أبت الانثناء وظلت مرفوعة في الهواء • رفعت عينيها الى فوق ورأت العينين الواسعتين السوداوين تلمعان بدمعة حقيقية كدمعة الاطفال • سقطت الدمعة على خدها ساخنة ، وزحفت من زاوية فمها مرة كالعلقم تحت لسانها ، فابتلعتها • سقطت واحدة أخرى ساخنة على خدها ، وزحفت الى زاوية أنفها مرة كالعلقم فابتلعتها • وبدأ الحزن يغزو جسدها من جميع المسام والفتحات ، يدخل أنفها وفمها وأذنيها كمسحوق ناعم ، مدبب الذرات ، كقطع الزجاج المبشور ، تمزق الاغشية الرقيقة التي تخلف الانف والفم والشعب الهوائية ، فتسعل بشدة ، وينز من صدرها سائل أبيض يجري في قناة

طويلة ضيقة تصل القلب بالحلق بالانف بالاذنين بالعينين ، فاذا بها تمخط لعابا من عينيها ، وتبصق دموعا من أنفهـا وفمها وأذنيها ، وكلها بيضاء تتخللها شعيرات من دم .

رفعت وجهها الى ضوء القمر . أصبح بياضه شديدا خاليا من شعيرات الـدم ، وملامحه غريبـة تشد البصر لتناقضها الشديد . فالذقن صغيرة مستديرة وناعمة كذقن طفل ، والجبهة بارزة خشنة مجعدة كجبـاه العجائز . الشفتان عذراوان منفرجتان عن حرمان لا يرتوي كشفـاه الزوجات العفيفات ، والخدان بـارزان في شراهة حـادة لا تشبع كخدود الازواج المحترمين ، والانف مستقيم عال في كبرياء ، سفيه كسفاهـة المجرمين والخارجين عـلى القانون ، والاذنان صغيرتان مستكينتان بغير حركة كآذان موظفي الحكومة ، والعينان سوداوان واسعتان ، فيهمـا نظرة بدائية وقحة مرفوعة الى أعلى وثابتة ، لا تغض البصر كعيون النساء المحتشمات المطرقات الى الارض حياء مـن أفكارهن الوقحة .

ملامح غريبـة شديدة التناقض ، والتناقض لشدة الغربة كان منسجما مع الملامح على نحو متسق مألوف ،

يبلغ من شدة انسجامه واتساقه درجـــة من الجاذبية غير المألوفة ، تشد اليها البصر شدا ، كأنما ليس لها وجه واحد وانما وجهان أو ثلاثة أو أربعة ، أو ان وجهها ليس وجها وانما شيء آخر .

شيء آخر مثيـــر للحيرة والارتبـــاك ، والقلق بـــل والغضب . فالانسان يغضب بطبيعة الحال حين ينظـــر في وجه انسان آخر فلا يرى نفسه وانما عورته ، ويشتـــد غضبه بطبيعة الحال أيضا اذا كانت عورته غير مألوفة في شكلها أو غير طبيعية ، والطبيعي أن يكون للعورة شكل مخجل مخل بالشرف ، وأن يكـــون لها رائحـــة نجاسة (كرائحة العرق أو البول أو غيرها من افرازات الجســـد السامة) ، ولكن أن تكون الرائحة طيبة معطرة فهذا هو الغريب ، لان الجسد في تلك الحالة يحتفظ في جوفـــه بالعرق والسموم ، فيصبح الجوف عفنا تفوح منه رائحة النجاسة ، أما الوجه فيظل نظيفا أبيض تكســـوه ملامح النبل وعراقة الاصل (وغيرهما من السمات الرفيعة التـــي تظهر بوضوح على وجوه النبلاء أمثال سيدها) .

وتحرك وجه سيدها نحوهـــا وهي واقفـــة في ضوء

القمر . ظلت عيناها في عينيه سوداوين واسعتين مفتوحتين لا تغضان البصر . أراد أن يبصق في وجههـــا من شدة الغضب . لكنه كان قد تعود أن يكظم الغضب ، فأصبح الغضب لا يحرك في وجهه الا عضلة صغيرة عند زاويـة أنفه ، تنقلص فجأة ، وتشد شفتيه في انفراجــة ، تبدو للعين المجردة كالابتسامة .

لم يكن لديها موعد آخر فصعدت الى السيـارة ، مرّت السيارة من أمام بيته الرئيسي في الزمالك . رأت سيدتها تطل من النافذة العاليـة المزركشة . كان رأسهـا بحجم الدبوس (بسبب الارتفاع الشاهق) ، لكنه رآهـا فأخفى وجهه بيده اليمنى وداس على البنزين بقدمه اليسرى فانطلقت السيارة ولم يره أحد . سار على مهل في شارع النيل واجتاز الكوبري ، فأصبح على مشارف حي بولاق ، حيث بيته الفرعي (كان لكل زوج محترم في ذلك الوقت بيت فرعي الى جانب البيت الرئيسي ، ويزيد عدد بيوته الفرعية كلما زادت درجته) .

وتجرد من ملابسه بسرعة (كعادة المشغولين بأمـور هامة) ، ثم رفع قدمه ووضعها على طرف السرير ، وبقيت

القدم الثانية فوق الارض (كان قد تدرب على الوقوف على ساق واحدة في سنوات الخدمة العامة) . تصادف في هذه اللحظة أن حركت رأسها ناحيته فلم تجد آلة القتل وانما الجرح القديم المسدود . كان يمكن أن تتسع عيناها السوداوان في دهشة . لكن شيئا لم يكن يدهشها، فحركت رأسها ناحية الحائط بغير اكتراث . رأت فوق الحائط سيدتها بملابسها العسكرية داخل اطار مذهب ، وعيناها شاخصتان فوق الكتلة العارية ، تتابعان حركتها بنظرة الحكام الوقورة المتجهمة ، وتلتقطان الصور من جميع الزوايا (ملحوظة : حفظت هذه الصور في أرشيف المخابرات المركزية) .

وأصبح وجهها معروفا ، حين تطل من نافذة العربة تلتوي ناحيتها الاعناق حانية الرؤوس بطبيعة الحال . وأصبح وجهها فوق الجدران ، في ناصية كل شارع ، حيث كانت تقف تنتظر ، وأحيانا حين يطول بها الانتظار ترفع رأسها الى فوق ، وترى صورتها معلقة ، شفتاها منفرجتان في ابتسامة عريضة ، ومن بينهما (عند ركن الفم) ، خيط طويل أبيض من اللعاب الدافىء يجري صاعدا الى زاوية الانف ثم يدخل في الركن بين الانف والعين .

وتمسح البلولة من فوق وجهها بكفها ، ثم تمسح كفها في الجدار ، وترتسم على الجدارِ الكف وخمسة أصابع آدمية ، تهبّ عليها نسمة الليل ، وتطلع عليها الشمس فتجف وتصبح بقعا سوداء بلون الدم القديم .

سقطت أشعة الشمس فوق عيني حميدو وهو نائم في وضع رأسي بجوار الجدار . فتح عينيه ورأى الكف والاصابع السوداء الممدودة . أصابعها كأصابعه والخطوط فوق كفها تشبه خطوطه . انفرجت شفتاه هاتفا : حميدة ! وشدّ آلة القتل بحذاء فخذه ، لكن رأى المفتاح الفضي اللامع يتدلى من بين أصابعها ، فأدرك انها سيدته ، وأخفى الآلة في جيبه في لمح البصر ، وتركها تتدلى مرتخية وراء فخذه ، ووقف في مكانه منتصبا ، عضلات ظهره مشدودة، وذراعه اليمنى مرفوعة ، وجفناه مرتخيان متدليان فوق عينيه كالحجاب .

حين ابتعد صوت العربة رفع جفنيه ، ورأى مؤخرة العربة المدببة تشقّ الظلمة ، ثم ابتلعتها الظلمة . ترك عضلات ظهره ترتخي ، وذراعه تهبط ، وشعر براحة ، فملأ صدره بهواء الليل ، وحاول أن يتذكر وجهه وهو

طفل ، وشكل ملامحه حين كان يبتسم أو يضحك ، فلم يتذكر شيئا . لم تكن هناك طفولة ولا ابتسامة ولا ضحكة.

سمع وقع قدميه الثقيلتين فوق الارض : يمين . شمال . يمين . شمال . لب . دب . لب . دب . الضربات البطيئة المنتظمة ، تتخللها مسافات من الصمت الاسود بلون الموت . سعل وبصق على الارض البصاق المدمم . سقطت الخيزرانة الرفيعة على ظهره ولسعته ، فأدرك انه عار وانه لم يمت بعد . فقد تفاؤله وبصق مرة أخرى . سمع الصوت الآمر المألوف فشدّ الآلة من الجراب الاسود . نظر بعين واحدة في الثقب ، وحدد النقطة في منتصف المسافة بين العينين . صاح الصوت الخشن : اضرب . ضرب .

سقط الجسد الطويل المعوج ، وفي منتصف جبهته البارز ثقب يجري منه خيط طويل من الدم ، يخترق العينين والخدين والانف والشفتين ويدور حول الذقن الصغيرة المستديرة كذقن الطفل .

لم يكن طفلا واحدا . وانما آلاف الاطفال أو ملايين ، أجسادهم سقطت فوق الاسفلت وفوق وجه كل منهم خيط طويل من الدم يجري من العينين الى الانف

والفم وبالعكس . والشمس سقطت فـــوق الاسفلت ، والسماء أصبحت زرقاء صافية وظهر فيها بوضوح الآلهة المكدسون الجالسون صفوفا ، ساقا فوق ساق ، يدخنون النرجيـــلة .

مدّ حميدو ساقه فارتطمت بساق أخرى . مدّ ذراعه فارتطمت بذراع أخرى . أصبح غارقا في بحر من الاجسام الميتة . بدأ يسبح بذراعيه وساقيه فــي الخضمّ الكبير . توقف لحظة ليلتقط نفسه ، وتلفت حوله ليعرف أين هو أو من الذي أتى به الى هنا . لم يتذكر شيئا سوى انــه كان طفلا ، وان قبضة يد قوية اندفعت في ظهره ، وقذفت به في البحر . رأى اليد مرسومة فــوق الجدار . الكف الكبيرة ككف أبيه ، والاصابع متورمة مشققــة كأصابع أمه . انفرجت شفتاه وهتف : أمي ! نظرت اليه أمه بعينيها السوداوين ، والطرحــة السوداء علــى رأسهــا وعنقهــا وكتفيها وبطنها .

كانت واقفة بقامتها الطويلة لا تتحرك وصدرهـــا العالي ثابت بحذاء رأسه . وضع رأسه على صدرها ، ودفن أنفه بين ثدييها . أبعدته أمه بيدها القوية ، فرفع رأســه

اليها ، ورأى عيني أبيه الواسعتين تلمع فوق بياضهمـــا الكبير الشعيرات الحمراء كالثعابين الرفيعة ، وسمع صوته الغليظ : العار لا يغسله الا الدم •

اقترب من أبيه ، وعيناه ثابتتان في عينيه لا ترمشان• ارتجفت الشعيرات الحمراء فوق البياض الكبير (الانسان يفزع اذا ما رأى عينا مفتوحة تنظر اليه دون أن ترمش • معنى ذلك انها تفحصه جيدا لتراه على حقيقته) •

تراجع أبوه خطوة الى الوراء فسقط ضوء المصباح على وجهه • رفع كفه الكبيرة وأخفى وجهه ، لكن الضوء كان يكشف جسده الطويل الضخـــم وهو واقف يسدّ الباب • نفخ ذؤابة الضوء فانطفأت ، وأصبحت الظلمـة شديدة ، الارض كالجدار كالسقف • فتعثرت قدمهالكبيرة الحافية في العتبة المرتفعة بعض الشيء • لكنه استعـــاد توازنه ، ووثب كالفهد على أطراف أصابعه المطاطية ، ثـم سار على مهل وحذر متخطيا شيئا يشبه البلغة (الحـذاء بلغة أهل الريف) •

صرخ حميدو بصوت الاطفال ، لكن جسده لم يكن جسد طفل • وامتدت يده في جيبه الطـويل كالجراب ،

وشدّ الآلة المعدنية الصلبة . حدد النقطـــة في منتصف المسافة بين الدائرتين البيضاوين تلمـــع فوقهما الخيوط الحمراء . كتم نفسه وأغمض عينيه وضغط على الزناد .

فتح عينيه ورأى الجسد الطويل المعوج ممددا تحت الشمس . عيناه الواسعتان مرفوعتان الى أعلى وذراعــه اليمنى متدلية الى جواره تقبض على شيء . فتح حميدو أصابعه ، فسقط القرش في كفه . أغلق عليه يده ، وذهب الى الدكان ليشتري تبغا . اشترى قطعــة من الحلوى ووضعها في فمه . استدار ليعــود ، لكن البائع طالبــه بالقرش . فتح يده المغلقة فلم يجد شيئا . أمسك البـائع العصا وجرى خلفه .

كان جسده خفيفا صغيرا يطير في الهواء كأجســاد العصافير ، وكان من الممكن أن يسبق البـــائع (لو كان عصفورا) ، لكنه أحس فجأة (وكما يحدث في الاحلام) ان جسده أصبح ثقيلا كأنه تحجر عـــلى شكل تمثال ، تسمرت قدمـــاه في الارض ، وثبتت ذراعاه بالحديــد والاسمنت ، والفخذان أصبحتا من الرخام ، وكل فخذ شدّ الى ناحية ، ودقّ في كل قدم مسمار كالمصلوب، وارتفعت .

العصا الرفيعة من الخيزران في الجو ، طويـــلة ورفيعة ومعوجة كالقوس ، ثم هوت عـــلى شيء طري ساخـن كاللحم الحي .

* *

حين فتح حميدو عينيه، كان ضوء النهار يملأ الغرفة. وأيقن ان ما رآه لم يكن الا حلما ، فقفز من فوق الحصيرة وجرى الى الشارع . كان أصدقاؤه من أطفال الجيـران يلعبون كعادتهم في الحارة الممتدة أمام البيوت الطينية ، يمسك كل منهم يد الآخر ويصنعون دائرة تلف، وتدور ، وصوت غنائهم الحاد الرفيع يدور مع حركة أجسادهم في أغنية واحدة ، لها مقطع واحد ، يتكرر في دورة متصـلة لا تنقطع :

حميدة ولدت ولد
سمته عبد الصمد
سابته على الاثايا
خطفت راسه الحدايا
حد يا حد يا بوز القرد

ولانهم يدورون ويغنون بغير انقطـاع ، فلا يمكن للاذن أن تعرف بداية الاغنية من نهايتها ، ولا يمكن للعين

أن تعرف بداية حركتهم من نهايتها ، لانهـم أطفال ، ولان الاطفال حين يلعبون يمسكون بأيديهم بعضهم بالبعض على شكل دائرة مغلقة .

* *

ولكن لا بد لي أن أنهي القصة ، فكل شيء له نهاية، لكن نقطة النهاية في هذه القصة لا أستطيـع تحديدها . فالنهاية لا تنتهي بنقطة محددة ، لان النهاية في حقيقـة الامر غير موجودة ، أو ان النهاية والبداية يتصـلان في خيط واحد دائري من الصعب تحديد أوله من آخره .

ومن هنا الصعوبة في انهـاء شيء ، وبالاخص اذا كان قصة حقيقية ، أي قصة صادقة كل الصدق ، دقيقـة غاية الدقة . والدقة تقتضي من الكاتب أو الكاتبة أن يراعى كل حرف ، وألا يهمل أي نقطة . ان نقطة واحدة قد تقلب كيان معنى من المعاني ، وبالذات في اللغة العربية . الذكر قد يصبح أنثى بسبب نقطة أو شرطة ، والبعل يصبح بغلا ، والوعد وغدا وهكذا .

ومن هنا أهمية النقطة الدقيقة المحددة . أي النقطة الهندسية . وبمعنى آخر ، لا بد من دقة علمية في العمل الفني الجيد . لكن العلم يفسد الفن ، وهذا الافساد هـو

بالضبط ما أردته في هذه القصة لتصبح جيدة ، أو لتصبح حقيقية وصادقة صدق الحياة الحية. لان الحياة قد تكون ميتة في بعض الاحيان ، كالانسان الذي يمشي على الارض دون أن يعرق ، أو دون أن يبول ، أو دون أن ينبعث من جسده شيء فاسد . لا يمكن للانسان الحي أن يحبس فساده في داخله ، والا مات ، وأصبح وجهه أبيض ناصع البياض ، وجوفه عفنا عفونة الموت .

خيل الي (والخيال في تلك اللحظة كان حقيقة) ، ان طفلا من الاطفال المنشدين المتماسكين بالايدي على شكل دائرة تدور ، خرج فجأة من الدائرة . رأيت جسمه الصغير ينفصل عن الخط الدائري المنتظم في دورانه كنقطة لامعة محددة . كنجم فقد توازنه الابدي فانفصل عن الكون اللانهائي ، واندفع بحركة عشوائية سريعة متوهجا بشعلة كالشهب قبل أن يحترق .

وباستطلاع غريزي تابعت عيني حركته . وحين توقف كان قد أصبح بالقرب مني . ورأيت وجهه . لم يكن طفلا ذكرا . كان أنثى . لم أعرف عن يقين انها أنثى ، فوجوه الاطفال كوجوه العجائز ليس لها جنس .

الوجه (للغرابة الشديدة) لم يكـــن غريبا علي •
كان مألوفا بدرجة أثارت دهشتي الى حد عدم التصديق •
فليس من المعقول أن يخرج الانسان من بيته في الصبـاح
ذاهبا الى عمله ، فاذا به يصطـدم بشخص آخر ، ما أن
يرفع وجهه اليه حتى يرى وجهه هو وليس أي وجه آخر •

أعترف ان جسدي ارتج • نوع من الذعر شديد ،
يشلّ قدرة الانسان على التفكير • ومع ذلك فكرت : لماذا
يذعر الانسان حينما يرى وجهـــه وجها لوجه ؟ ربما هي
الغرابة الشديدة ، أو ربما هي الالفة الشديدة • حينئـذ
يختلط على الانسان كل شيء ، وتصبح الاشياء المتناقضة
متشابهة الى حد التماثل ، فالاسود يصبح أبيض ، والابيض
أسود • ومعنى ذلك أن يواجه الانسان بعينيه المفتوحتين
حقيقة انه أعمى •

ــ تمت ــ

١٧٥ قرش مصري